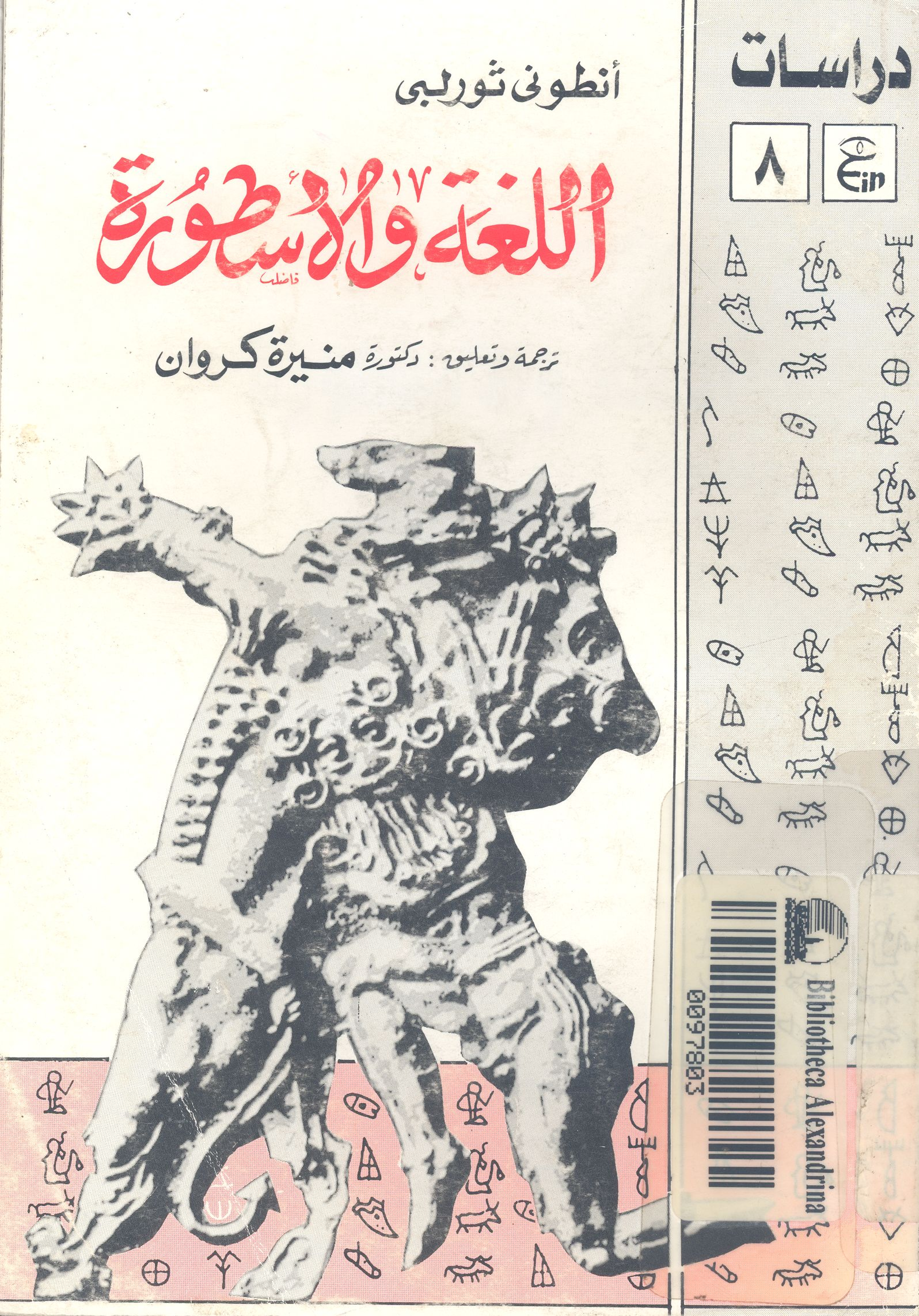


دراسات
Ein
٨
أنطونى ثورلبى
اللغة والأسطورة
ترجمة وتعليق : دكتورة منيرة كروان

أنطونى ثورلبى

اللغة والأسطورة

ترجمة وتعليق
دكتورة منيرة كروان

تقديم: دكتور احمد عتمان

الطبعة الأولى
١٩٩٧



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية
EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

هذه ترجمة لمقال

Antony Thorlby , "Language and Myth"

in : A. Thorlby (ed.),The Classical World, (Aldus Books)

London 1972, pp. 49-75

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبو طالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

٦ شارع يوسف فهمى - اسباتس - الهرم - ج.م.ع - تليفون : ٣٨٥١٢٧٦

Publisher:EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

6 , Yousef Fahmy St ., Spates - Elharam - A.R.E. Tel : 3851276

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

من المفاهيم التى نود أن تستقر فى الأذهان أن اللغة وجود ، وبعبارة أخرى نقول إن الوجود لايكتمل بدون اللغة، ولا أمل فى ارتقاء هذا الوجود دون ارتقاء اللغة ، على أن كلاً منهما يؤثر فى الآخر ويتفاعل معه .

الوجود الإنسانى ليس مجرد تنفس الهواء أو ابتلاع الطعام والشراب بل هو التعامل والتفاعل مع الآخر . الوجود الإنسانى هو العيش فى إطار مجتمع والإسهام فى بنائه وممارسة كافة الأنشطة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية وما إلى ذلك . وكل هذه الأنشطة لايمكن ممارستها على نحو متكامل بدون الفن اللغوى . نحن نحب ونكره مستعينين باللغة وزخرفها ، نتعلم ونعلّم بأساليب لغوية معينة، نفرح ونحزن فتسهم اللغة فى فرحنا وحزننا . وعندما يموت العظماء الأدباء يسكت لسانهم وتتحدث آثارهم . وحتى أولئك الذين حرموا نعمة إرسال اللغة أو استقبالها يبتدعون لأنفسهم لغتهم الخاصة .

اللغة إذن ليست مجرد وسيلة للتعبير عن مكونات النفس أو نقل الأفكار والمشاعر والرغبات . فاللغة أكثر وأشمل من كل ذلك، فهى تتدخل فى تشكيل مقومات الحياة نفسها ومن ثم كل ما يترتب عليها. اللغة مثلاً هى التى تتحكم فى تحديد مفاهيم القيم الأخلاقية . بل إن اللغة هى التى تلعب الدور الرئيسى فى تحديد معالم العلاقة بين الإنسان وما حوله من أحياء وأشياء .

وإذا استقامت اللغة وأزهرت أثمرت التقدم والرقى لأنها حينئذ تصبح أداة صالحة لممارسة الحياة المزدهرة . نعم فالحياة تزدهر بازدهار اللغة لأن ازدهار اللغة يعنى الرقى فى كافة مجالات الحياة. باستقامة اللغة وازدهارها تستقيم العلاقة بين الإنسان وكل ما هو حوله فى الطبيعة وفى الحياة اليومية. فحتى علاقتنا بالأشياء تتأثر بالمستوى اللغوى الذى نتعامل به ونتداوله .

لعله من المفيد أن نسلط الضوء على مفهوم قد يغيب عن الأذهان وهو أن اللغة هى الحضارة أو بالأحرى هى الوعاء الذى تصب فيه كل المعطيات والمقومات التى تصنع ما نسميه الحضارة ، فتأخذ شكلاً متميزاً وسمات معينة . وهكذا تتمايز الحضارات فيما بينها بفضل اللغة. باللغة نمارس كافة فنون الحياة وباللغة نعبر عنها أيضًا حتى أننا أوجدنا لكل فن من فنون الحياة لغته الخاصة شعراً كانت أم نثراً وترعرت عندنا أغانى الزفاف ومرثيات القبور، واندلعت الخطب الدينية والسياسية والقضائية. ويزخر التراث لدى كافة الشعوب بقصائد الغزل والمدح والقدح وهلم جرا .

ولكل فن من هذه الفنون لغته الخاصة وأسلوبه المميز ولكنها جميعًا تصب فى مجرى واحد هو اللغة القومية التى تمثل الإطار العام لهذه الحضارة أو تلك .

وهكذا اللغة والحضارة صنوان ينموان معًا ويتفاعلان معًا ويشكلان معا ضمير الأمة ، أية أمة. إن المدقق فى دراسة حضارات العالم سيلاحظ وجود علاقة عضوية بين الحضارة واللغة فالكتابات المصرية

القديمة سواء تلك المنحوتة على آثارها أو المكتشفة فى البرديات تتواءم تمامًا مع المعابد والمنازل والمدن الأثرية التى تم العثور عليها فى الحفريات. حتى إنه لمن العسير أو المحال أن نتخيل لغة أخرى فوق جدران الكرنك أو أبى سمبل أو حول المومياوات .

ونفس الشئ يقال عن اللغة اليونانية القديمة وتناسقها ؛ فمسرحيات سوفوكليس ولاسيما «أوديب ملكًا» تقارن دائمًا بالأكروبوليس أروع ما خلفه الإغريق من حيث الآثار .

تتلون اللغة نطقًا وكتابة بألوان الطبيعة وتضاريسها ومناخها وأجناسها وسلالاتها . فكلام أهل البادية غير كلام أبناء الحضر ، ولهجة أبناء الريف فى صعيد مصر غير لهجة أهل الإسكندرية أو بورسعيد وهكذا. سكان الجبال الشاهقة والغابات الكثيفة يتحدثون بطريقة تغاير حديث أهل الوديان والكهوف والصحراء الجرداء. لغة أبناء القطب المتجمد الشمالى أو الجنوبى - أو المناطق القريبة منهما- غير لغة الخط الاستوائى. الطريقة التى يتكلم بها أبناء الجنس الأصفر فى الصين واليابان والفلبين مثلاً غير طريقة السود فى أفريقيا أو الهنود الحمر فى أمريكا . هذه الاختلافات اللغوية جاءت نتيجة للاختلافات البيئية من حيث ملابسات الحياة اليومية وأساس التكوين العرقى نفسه ولكن هذه الاختلافات اللغوية هى أيضًا التى أوجدت اختلافات واضحة فى العادات والتقاليد وأنماط الحياة . إذن فاللغة دالة على خصائص الناطقين بها والمستخدمين لها .

الأهم من ذلك أن هناك علاقة واضحة بين اللغة والتفكير المنطقى أو غير المنطقى. إنها ليست مجرد مفردات تلقى على نحو عشوائى وإنما هى تركيبات وتكوينات وتفريعات وتنويعات تتشكل فى سياق عام هو الذى يعطيها المعنى والمذاق . وذلك كله يقوم على التفكير المنطقى ليس فقط من قبل المنتج أو المرسل للكلام بل أيضًا من قبل المستقبل أو المتلقى .

سبق أن قال أرسطو ما فحواه أن الإنسان حيوان سياسى(Politicon) أى اجتماعى يعيش بين الناس ويتفاهم معهم فى إطار الدولة- المدينة (Polis) . وقالت العرب إن الإنسان حيوان ناطق أى يتكلم كلامًا مفهومًا ومنطقيًا بالنسبة له هو شخصيًا أولاً وبالنسبة للآخرين من حوله ثانيًا . وفى كلتا الحالتين هناك إذن ربط بين «الكلام» و «المنطق» حتى إن هناك بعض الفقهاء اللغويين الذين يربطون بين الكلمة العربية «لغة» واليونانية» لوغوس» (Logos) بمعنى «الكلام» أو «المنطق» ومن هنا نفهم سر تسمية «علم الكلام» فهو يقابل «المنطق» عند اليونان .

وكم أتمنى من كل قلبى أن يتكلم المتكلمون عندنا فنفهمهم وأدعو الله ليل نهار أن يهبنى دومًا «حسن الكلام» وكذلك «حسن الاستماع»، أن يفقه لسانى وتستوعب أذنى كلام الآخر .

فى حدود ما نعلم كان الشاعر اللاتينى الأشهر كاتوللوس زعيم الغزليين الذى عاش فى القرن الأول قبل الميلاد هو أول من استخدم فى قصائده المتوهجة عبارة «أحب وأكره» للتعبير عن حالته الشعورية التى تجمع بين الحب والكراهية فى وقت واحد . قال كاتوللوس المعذب فى حبه لليسبيا (Lesbia) التى كرس حياته وشعره لها :

أحب وأكـــــره ! وقــــــد تســـــأل لماذا

لا أدرى ســـوى أنى أتعـــذب بحق وأتمزق

فشئ من الكراهيـة هنا يداخل الإحسـاس الصـادق بالحب ويؤكده. وهكذا شأن العلاقات بين اللغات القديمة والحديثة منذ نشأتها وإلى يومنا هذا. إنها تحب بعضها حبًا جمًا وكل منها تكره الأخرى أيضًا. تتجاور فى إطار هذه العلاقات اللغوية مظاهر الود والترحاب وسعة الصدر والتداخل والتفاعل والأخذ والعطاء من ناحية ومظاهر العداء المستحكم والنفور المتبادل والتباعد المتصاعد من ناحية أخرى .

ومثل هذه العلاقات المعقدة والأحاسيس المتضاربة تنشأ بالطبع فيما بين اللغات المتجاورة جغرافيًا أو المتعاقبة تاريخيًا ، ونضرب لذلك مثلاً بما حدث فعلاً بين اللغة العربية ولغات الشرق القديم بما فى ذلك اللغة المصرية القديمة والفينيقية والسوريانية والفارسية والهندية . ومثل آخر أكثر وضوحًا يتمثل فى العلاقة الخاصة جداً بين اللغة اليونانية القديمة واللغة اللاتينية : إذ يبدوان وكأنهما صنوان لاينفصلان ولاتستطيع أن تفهم الواحدة منهما دون الأخرى من حيث اشتقاقاتها وتركيباتها ومعانيها وتراثها الأدبى . وفى نفس الوقت تجد العداء مستحكما فيما بينهما فكل واحدة منهما تحاول أن تطغى على الأخرى بالاستيلاء على أراضيها وممتلكاتها الأدبية ومصطلحاتها . وهذا الصراع بين هاتين اللغتين ما زال ممتداً إلى وقتنا هذا وحتى بعد موت اللغتين المذكورتين . فالمصطلح العلمى والتكنولوجى الشائع الآن يشتق تارة من اليونانية

وتارة أخرى من اللاتينية مما يزيد العداوة بينهما ويشعل التنافس بين أنصارهما. فكل توسع لأى منهما يأتى على حساب الأخرى.

ولكن هاتين اللغتين المتعاديتين تشكلان معًا صداقة قوية ومتينة تمثل جبهة متحدة فى مواجهة اللغات الأوربية الحديثة. فاللغات الرومانية مثلاً - أي الإيطالية والفرنسية والاسبانية والبرتغالية ولغة رومانيا (واليونان) - هذه اللغات مشتقة من اللاتينية و (اليونانية) . ولدت هذه اللغات إذن فى أواخر العصور الوسطى من هاتين اللغتين القديمتين وما أن ولدت وشبت عن الطوق وتعدت مرحلة نعومة الأظافر حتى قضت على اللغتين ، الأم والأصل ، اليونانية واللاتينية . وانتقمت هاتان اللغتان الميتتان لنفسهما من اللغات الحديثة جميعًا بأنها أرسلت من العالم الآخر كل أصول المصطلحات الشائعة بيننا فى مجالات الآداب والفنون والعلوم .

وما أشبه العلاقات بين اللغات وما بها من حب وكراهية بتقلبات العلاقات بين العشاق المتحدثين بتلك اللغات .

ومنذ أن وقع هذا المقال فى يدى عام ١٩٨٤ وأنا أقرأه مرة واحدة على الأقل سنويًا مع طلاب الدراسات العليا فى كلية الآداب جامعة القاهرة الذين يدرسون مناهج البحث اللغوى. وفى كل مرة اكتشف معان كثيرة لم أكن فطنت إليها فى القراءت السابقة . ويزداد فهمى لهذا المقال المكثف كلما سألنى الطلاب عن هذه الفقرة أو تلك فأنا من بين أولئك الذين يفهمون الأشياء كلما طرحت حولها الأسئلة . وهذا مقال ملئ بالأسئلة . وأروع من ذلك أن كاتبه قد استعمل لغة تتواءم مع

المضمون فهي لغة شاعرية وفلسفية وتلك أسمى الصور الراقية للأسلوب. لغة المقال إذن فلسفية من حيث تجديد المعانى وضبط المفاهيم وهى فى الوقت نفسه شاعرية لأنها توحى إيحاءات غزيرة فيما بين السطور .

ولقد بذلت الدكتورة منيرة كروان أقصى جهد ممكن فى سبيل نقل هذا المقال إلى اللغة العربية. وهى بذلك قد أدت خدمة طيبة للعاملين فى حقل الدراسات اللغوية . هذا وبالله التوفيق .

دكتور أحمد عتمان

اللغـة والأسطـورة

إن اللغة وسيلة التفاهيم فى حياة الإنسان المتحضرة . ولذلك فإنها «تحتوى على» مشاكله وتاريخ محاولاته كى يعيش بشكل متحضر : أى تحتوى على محاولاته لتحقيق نظام اجتماعى، ولأن يفهم ذاته ويحدد الطريقة التى يرتبط بها بمجتمع الآخر ؛ سواء بغيره من البشر أو بالآلهة أو بالأشياء .

هذه العلاقة التى يصعب إدراكها ، ولايمكن إخضاعها لقياس ما، والتى تُمارس يوميا ، رغم أنه لايمكن لأى علم أن يحددها بشكل كامل، هى ميدان الأدب (أكثر من غيره من الفنون الأخرى) ، وهى ميدان الخيال والعقيدة ، كما أنها ميدان تأمل العقل لنفسه، وهو ما كان يشكل الاهتمام الأعظم للفلسفة .

ولامجال هنا سوى أن نذكر أنفسنا فحسب بالقوة التى امتلكتها اللغة منذ أقدم العصور : فى السحر وفى الدين ، وفى السياسة.

لقد زعم السوفسطائيون ، الذين كانوا يسيطرون على التعليم الإغريقى خلال القرن الخامس ق. م ، أن اتقان اللغة وطريقة عرض الرأى ومناقشته هى مفتاح الحقيقة ، وعموما فقد كانوا يقصدون «بالحقيقة» مدى فعاليتها فى المجتمع . ويرجع نجاحهم إلى ما عانته اليقينيات الدينية والأخلاقية القديمة من عدم الثبات وذلك بتأثير من مذهب اللاأدرية *، الذى تطور من التأمل المبكر فى الطبيعيات .

---

* مذهب اللاأدرية Agnosticism : =

ويدين أفلاطون بقدر كبير من إبداعه الملهم إلى وعيه بخطورة تقليل الحقيقة بتقنينه الكلمات . وينبع جزء من شكه فى الأدب من ذلك. ولقد أسئ فهم سقراط نفسه واعُتبر سوفسطائيًا بالرغم من أنه كان يجادل ضدهم (وإن كان قد بدا وكأنه يجادل «مثلهم») ، ومن المؤكد أنه كان رجلا يكرس نفسه للحقيقة التى كانت بالنسبة له طريقة فى الحياة أكثر من كونها شكلا للكلمات .

وكم تكرر هذا الجدل حول اللغة عبر العصور : إن التعليم يؤدى إلى الشك وإلى اضطراب النظام الاجتماعى ، وذلك على يد رجال جعلوا من الكلمات تجارة، وكانوا فى الواقع مرتزقة يخدمون المصلحة الشخصية لهذا أو ذاك ، وليس مصلحتهم الخاصة ، كما يوضح سقراط بصورة ساخرة .

ويختلف الاهتمام باللغة من قرن لآخر، ومن ثم فسوف تلقى الأجزاء اللغوية عناية خاصة . ولم يكن هذا الاهتمام أقوى فى أي وقت آخر عما هو عليه فى الوقت الحاضر ، وذلك لتضافر مجموعة من الظروف

= وهو مشتق من الكلمة اليونانية (agnostos) بمعنى غير معروف أو «لايمكن معرفته» . وهو مذهب من يشكون فى وجود الآلهة وخلود الإنسان ويتنكرون للعقلانيات واستنباطاتها . فيؤمنون بأن العقل البشرى عاجز عن تخطى حدود الخبرة الذاتية ، ومن ثم فإن أصل الكون ووجود الآلهة وطبيعتهم كلها أمور لاسبيل إلى سبر غورها. وهم فى الأصل جماعة قديمة لا تأخذ بالعلم، ولاتقضى فى الأشياء بحكم. وهم أتباع الفيلسوف بيرون ، الذى كان على رأس المتشككين الإغريق .

(المترجمة)

الأكاديمية والاجتماعية التى أدت إلى تجديد شباب علم فقه اللغة وإلى تكوين علم جديد هو «علم دراسة معانى الكلمات» أو علم الدلالات Semantics وعندما حصلت نظرية دراسة معانى الكلمات على مفاهيم (ومن باب المصادفة على دليل حقيقى) من علم السيبر نطيقا*، فإن أسئلة من نوعية هل يمكن لقصيدة كتبها الكومبيوتر أن تصبح خبراً رئيسيًا ؟ من سوء الحظ أنه فى غمرة الجدل المستعر، وفى غمار التفاصيل المملة لبحث معانى الكلمات، عميت البصائر عن الإجابة الوحيدة المتحضرة . إن الكومبيوتر لايستطيع أن يقرأ قصيدة بحس الإنسان ومشاعره . بمعنى أنه لايستطيع، بين ملايين السطور المختلفة التى تخرج منه فى الدقيقة الواحدة أن يميز الأفضل من بينها. وذلك لأن قضية «ما هو الأحسن» ، قضية تجربة شخصية ، قضية ذوق يُربّى داخل الإنسان ، كما أنها قضية موقف يواجه به من الخارج، إنها فى كلمة واحدة قضية حضارة .

وليس من المفترض هنا أن الحضارة يمكن أن تكون متساوية فى مجتمع ما فى الماضى أو الحاضر أو المستقبل . ومما لاشك فيه أن الأدب «يعكس صورة المجتمع» ولكن جاذبيته بالنسبة لنا تعتمد كذلك على مدى تحضر الوسيلة الأدبية ، وعلى نوعية التجربة التى تنقلها اللغة لنا. ومن ثم فإن السؤال لايتعلق بمدى دقة الانعكاس ولكنه ببساطة يتعلق

---

* علم السيبر نطيقا (cybernetics) :

علم يدرس فاعلية العقل البشرى بمقارنتها بفاعلية الآلات الحاسبة .

(المترجمة)

بمدى تحضره، ولاشك فى أنه فى الأعمال الأدبية يتم اختيار الكلمات ويتم الاستمتاع بها. ومن المؤكد أن عملية الاختيار والاستمتاع هى إلى حد ما مسألة أسلوب شخصى وتذوق (وهنا تكون التأثيرات الاجتماعية قوية ، وهو ما سوف نشير إليه دائما) ولكن فى أعماق بناء اللغة توجد قوة كامنة : بيد أنها قوة لاتوفر قاعدة مبسطة ولاحرية اعتباطية بشأن ماله معنى ومالايحمل أى معنى ، شئ عرف منذ أقدم العصور بأنه ضرورى أو ملزم أى أنه فى ذلك يشبه الدين (الفعل اللاتينى Religare معناه يجبر أو يلزم) ، شئ يتحدى التفسير المناسب . وذلك لأن التفسيرات يجب أن تكتب فى هيئة لغة ولاتستطيع أن تعبر عن نفسها بشكل كامل .

ويطبيعة الحال ما زال البحث جاريا عن التفسيرات ، وإن كان بمعانى مختلفة ، على جانبى المحيط الأطلنطى ، وعلى جانبى الستار الحديدى وكذلك على جانبى القنال الإنجليزى . ويكمن الاختلاف الكبير فى الطرق فى طبيعة الموضوع ذاته . فقد يتم التفكير فى الكلمات باعتبارها كلمات مكتوبة أو منطوقة ، أو باعتبارها أجزاء من الجمل والأفكار، أو أصواتا يصدرها البشر. علاوة على هذه الاختلافات ، فإن هناك اختلافات أخرى كثيرة ذات طبيعة تاريخية سببها الاختلاف بين عصر وآخر ، أو بين حضارة وأخرى ، فيما يتعلق بفرضيات الدراسة وطرقها . وهكذا ، فقد كان فقه اللغة العبرية وآدابها شيئا مقدسا عموما ، وكان ذلك أيضا هو حال البحث اللغوى عند العلماء العرب فى العصور الوسطى، الذين كان من واجبهم الحفاظ على نقاء لغة القرآن

التى كان يجب شرحها للمسلمين الذين لايتحدثون العربية، ولكن لم يُسمح بترجمتها . ومن ناحية أخرى، فقد ركز أرسطو على اللغة من ناحية الأسلوب ؛ أى التساؤل عن أى طرق التعبير تتناسب أكثر مع الحدث ، وأيضا من وجهة نظر المنطق . ولقد واجه الكتاب المسيحيون المبكرون صراعًا جديدا بين متطلبات اللغة الدينية واللغة الدنيوية . ويدرك الكُتاب ، خلال القرون التالية وحتى عصرنا الحالى، بمختلف اتجاهاتهم أن هناك اختلافات متماثلة بين الاستخدام والتراث ، بين التفضيل الذاتى والمتطلبات العامة ، بين الهوية والقومية والمعايير الأسمى من القومية .

ومن ثم فإن هذه هى معالم دراسة اللغة التى سوف تلقى معظم الاهتمام هنا . وقد يكون من غير الملائم أن نحاول استكشاف الاتجاهات العلمية الأكثر معاصرة لتناول اللغة . وبالرغم من عدم وجود تمييز معصوم من الخطأ، فى أية فترة ، بين فقه اللغة الذى يساعدنا فى فهم الأدب وذلك الذى لايساعدنا ، فإن عائلة كاملة من الموضوعات ذات الأصل الواحد- - مثل التاريخ الأدبى والنقد وعلم دراسة معانى الكلمات وعلم اللغة وفلسفة اللغة وسيكولوجية اللغة- قد انبعثت فى السنوات القريبة من اسم عائلة واحدة كانت تبدو من قبل قادرة على استيعاب فهمنا الكامل للثقافة الإنسانية: إذ أن الفيلولوجى (Phil-ologia) كمفهوم كان يضم بصفة عامة دراسة الكلمات ودراسة النصوص وحب التعلم. لقد كان ليوسبيتزر (Leo Spitzer)[1] واحدا من ضمن آخر علماء فقه اللغة المثاليين الذين آمنوا بأن علم اللغة والتاريخ الأدبى ، وعلم الاشتقاق وفهم النصوص ، يشكلون كلاً مثاليًا ،

وأنه «فى جميع تواريخ الكلمة هناك احتمال التعرف على مظاهر جهد الشعب ثقافيًا ونفسيًا» . وقد يكون من الملائم أن نضيف أن سبيتزر ، بالإضافة إلى ذلك ، كان ألمانيًا ورومانسيا (وسوف نناقش معنى ذلك فيما بعد) ، وأنه كان يؤمن بأشياء مثل «روح» الأمة «وطبيعة» العصر، كما آمن كذلك بالخصوصية الفريدة للتجربة الأدبية .

وليس معنى هذا أن القرن العشرين قد وجه اهتماما أقل للغة ، بل على النقيض من ذلك ، فقد وجد اهتماما أكبر، ولكنه لم يكن دائما فى مجال الأدب الذى يُعتبر المثال الأهم للطريقة التى تتحدث بها الكلمات إلينا. إن دراسة اللغة التى أعطاها كلود ليفى شتراوس (Claude Lévi- Straus) تلك الدفعة القوية فى باريس منذ الحرب العالمية الثانية[٢] هى بالنسبة له مفتاح ، ليس لفهم الأدب وإنما لفهم علم الاجتماع. إن الكلمات هى مثال واحد فقط للتفاهم بالإشارات، كما أن علم الإشارات* هو واحد فقط من طرق دراسة تركيبات الوجود الإنسانى

---

* علم الإرشادات (Semiology أو Semiotics) :

وهو مشتق من الكلمة اليونانية (Semeion) بمعنى إشارة. ويؤكد علم الإشارات على أن المعنى ، وإن بدا طبيعيا وفطريا ، فهو دائما نتيجة للتقاليد الاجتماعية . ويفسر هذا العلم الحضارة باعتبارها سلسلة من أنظمة الإشارة . ورغم وجود تاريخ طويل للتأمل فى معنى الإشارة فإن أعمال شارل ساندر بيرس (Charles Sanders Peirs) وفردناند دى سوشير (Ferdinande de Saussure) تؤرخ لميلاد علم الإشارة الحديث. وتدور دراسات علم الإشارة حول نظام التقاليد الذى يسمح بالتواصل الأدبى والمعانى الأدبية. وكان جزء كبير مما يُسمى الآن Semiotics أو Semiology كما =

كما أن كل الظواهر تقوم على أساس التركيبات . وإنه لأمر أخاذ أن نعتبر هذا الاستعداد للإيمان بعلم عالمى، فى مقدمة النماذج العقلية، فرنسيا فى الأساس. ومن المؤكد أن بعض فرضيات ليفى شتراوس (Lévi - Strauss) عن اللغة باعتبارها إشارات ترجع إلى سوشير (Saussur) ، ومن خلاله حتى كونديلاك (Condilac) ، وكذلك إلى افكار عصر التنوير*، وأخيرا فإن هذه الثقة فى وجود مفتاح أو خطة

= يطلقون عليه فى أوربا ، يسمى فى البداية بالبنائية أو التركيبة (Struc-turalism)

لمزيد من المعلومات انظر :

Barthes , R : Elements of Semiology (1968) , Eco , U . A Theory of Semiotics (1966) , Hawkes, T : Structuralism or Semiotics (1977) .

(المترجمة)

* عصر التنوير (Enlightenment) :

عبارة تُطلق على عصر الحركة الفلسفية والأدبية فى غرب أوربا بين عامى ١٦٩٠-١٧٧٠ تقريبا . وكانت التسمية تنصب فى الأصل على الحركة الفلسفية فى ألمانيا والتى قادها لسنج ومندلسون فى سبيل التربية والثقافة والتحرر من جمود التقاليد الذهنية والانصراف عن العلوم ومنطقها . وتُطلق فى انجلترا على النهضة الفلسفية والعلمية التى قادها لوك ونيوتن . كما كما تُطلق فى فرنسا على مدرسة ڤولتير وديدرو . وتتميز كل هذه الحركات الفلسفية بالتشكيك فى القيم التقليدية ومعتقداتها وبالميل نحو الفردية المطلقة ، وبإبراز فكرة االتقدم البشرى العام، وبالمناهج التجريبية للعلوم وبتحكيم العقل فى كل شئ . =

ثقافية سهلة المنال يكون العالم المادى فيها إضافة ثانوية أو حتى زيادة عن المطلوب، ارتبطت بعقلانية ديكارت وسيادة الثقافة الفرنسية التى يطلق عليها لفظ الكلاسيكية الجديدة * .

= لمزيد من التفاصيل انظر :

Capaldi . N . : The Enlightenment : The Proper Study of Mankind (1967) ; Gay . p. : The Enlightenment : A Comprehensive Anthology (1973) ; Hampson , N . : The Enlightenment (1977) .

(المترجمة)

* الكلاسيكية الجديدة Neo-Classicism :

تطلق بصفة عامة على الطراز الفنى والمعمارى فى الفترة من حوالى عام ١٧٧٠ إلى قرب عام ١٨٣٠، والمنبثق تحت تأثير دفعة الحماسة نحو الحضارة الكلاسيكية من جديد بعد أن أطرح الفنانون طراز الروكوكو المفرط الأناقة والتنميق مؤثرين العودة نحو صيغ العصر الكلاسيكى القديم وموضوعاته . وقد بات من المظاهر التى لاتفتأ تتكرر فى الفن الغربى منذ العصور القديمة تلك الالتفاتة من حين لآخر إلى روائع اليونان وروما حتى لايخلو قرن من مرحلة كلاسيكية جديدة من أى نوع كانت. وفى قرننا الحالى شهد عام ١٩٢٠ وما تلاه انقلابا حاسما نحو هذا الاتجاه ، فلقد كان للتطرف الوجدانى لبعض التيارات الفنية الفضل فى الكشف خلال مرحلة الهدوء النسبية التى أعقبت عاصفة الحرب العالمية الأولى عن أن النظام والوضوح أجدى من العنف فى التعبير تماما مثلما حدث فى أعقاب الثورة الفرنسية والحروب النابوليونية ولم يقتصر هذا النشاط على الفنون وحدها بل تعداها إلى الأدب الذى أسهم فى إعادة تأويل الأساطير اليونانية القديمة بعبارات لبقة لتقديم مقابلات أخلاقية وسياسية بين الماضى والحاضر واستحياء العبرة منها وهو ما نراه فى أعمال أندريه =

ولقد أدخل فرديناند دى سوشير (١٨٥٧-١٩١٣) مفهومًا جديدًا تماما للمنهج إلى علم فقه اللغة ، وهو الحقل الذى كانت السيادة فيه آنذاك للألمان ، وكان لايعنى بالمنهج شيئا مثيرا من الناحية الخيالية مثل علم الاشتقاق (Etymology) ، وإنما هو نظام نظرى مثله مثل علم الجبر أو الهندسة . وكان أحد تشبيهاته المفضلة أن اللغة مثل لعبة الشطرنج ، لا أهمية للمظهر الفعلى للقطع، ولكن المهم فقط علاقاتها الوظيفية[٣]. ولايربط سوشير الكلمات بالأشياء إنما يربطها بالمفاهيم ، وكانت النتيجة أنه أعلن أن العلاقة بين الدال (le Signifiant) والمدلول (le Signifie)، كما كان يسمى وجهى اللغة ، ليست علاقة اعتباطية لكنها أيضا علاقة لاتنفصم عراها . وقد ترتبت على ذلك نتائج هامة فى الظواهر الاجتماعية للدراسة اللغوية التى تأثر فيها سوشير، بكل تأكيد، بعالم الاجتماع العظيم المعاصر له دوركايم ، وهو ما قد يبدو أمرًا غريبًا .

= جيد منذ رواية «بروميثيوس الذى لم يُحكم وثاقه» عام ١٨٩٩ إلى «ثيسيوس» عام ١٩٤٦ ، ثم فى أعمال فرانز ڤرفل النمساوى مثل مسرحيته المعادية للحرب» «نساء طروادة» ١٩١٤ ، وأعمال جان بول سارتر مثل مسرحية «الذباب» عام ١٩٤٢ كذلك استخدم سيجموند فرويد بعض شخصيات الأدب الإغريقى مثل أوديب واليكترا ونارکسوس للرمز إلى نزعات لا واعية فى سيكولوجية البشر. لمزيد من المعلومات انظر:

Bate, W . J . : From Classic to Romantic (1946) , Bolgar , R . P. : Classical influence on Western Thought (1949) , Browen R . A : Rule and Revolt in English Classicism (1965)

(المترجمة)

وتعترف نظرية سوشير بأن اللغة تتحدد وتتشكل وفقا للظروف الاجتماعية لكنها فى ذات الوقت مؤسسة مستقلة لها قوانينها الخاصة بها . ولايمكن المجادلة فى منطق تصنيفاته ، ولكن النقطة الأقل وضوحا فى منهج سوشير الذى لم يكتمل على الإطلاق هى تحديد النقطة التى تتقابل عندها الكلمة بالمفهوم مع علاقة الكلمات بالمواقف أو بالأشياء . وهنا يتولد عن وضوح الفروق التحليلية التى حددها انطباع بأن هاتين العلاقتين متماثلتين ، ولكن مثل هذا التماثل لم يتم إقراره فى الواقع*. ومرة أخرى فليس من العسير أن نلمح هنا تناقضا يتكرر عن بعد فى الحياة السياسية الفرنسية : ولعها الشديد بالحرية الاجتماعية ونظرتها للنظام العقلانى على أنه انصهار كامل ومطلق بين «شعب» ذى سيادة وحاكم ذى سيادة ، وذلك على نفس النمط الذى قدمه أكثر من حاكم مطلق طوال التاريخ الفرنسى، والذى أورثه جان جاك روسو لأوربا بطريقة نظرية خلابة للغاية. وقد يكون الإنسان الرومانسى معذورا إذا ما اعتبر أسلوب سوشير رمزاً لروح الأمة، فقد كان أسلوبه مليئا بالتشبيهات العاطفية - بل قد نقول الشاعرية- ليظلل بها أسلوبه

---

* لقد قدم سوشير مصطلحا خاصا لكى يفسر لماذا تكتسب الكلمات قيمة خاصة عندما تُستخدم فى مواقف خاصة . وببساطة فإن هذا المفهوم عن القيمة لايعتمد على الحقيقة ولا على المنطق ، ولكن يبدو أنه ينبثق تماما من الحدس الشعرى أو الإبداعى .

(المؤلف)

العقلانى الصرف فى دراسة علم اللغة . ومن اللافت للنظر أن سيدة فرنسية ، هى مدام دى ستايل Mme de Stael ، قد ربطت ذات مرة بين استخدام الحديث العقلانى وبين استخدام الكحول (والحق يقال فإن تشبيهها كان يعنى أنها تشير إلى أن الطريقة التى يستخدم بها المثقفون الفرنسيون اللغة هى طريقة فنية بصورة خاصة، ولكنها أيضا جعلت أدبهم يتميز بأنه مثير للنشوة بشكل خاص)

«إن اللغة فى فرنسا ليست ببساطة مثلما هى فى أى مكان آخر، وسيلة لنقل الأفكار والمشاعر والأمور العملية ، ولكنها وسيلة تجعل من استخدامها متعة ، فهى تحفز العقول إلى النشوة على نحو ما تحدثه الموسيقى بالنسبة لبعض الشعوب أو الكحول بالنسبة لشعوب أخرى » .

لقد كان سوشير سويسريا - فرنسيا بالرغم من أنه تعلم فى باريس لمدة عشر سنوات ، كما درس فى ألمانيا - وهى ظروف شبيهة بظروف كل من مدام ستايل وروسو . وقد نلاحظ أيضا أن الفترة الحاسمة والملهمة فى حياة ديكارت كانت فى فترة وجوده بالخارج أيضا ، كما أن اهتمامه بقضية اللغة وتأثيره فيها كان كبيرا . وقد يكون من الأمور المغرية أن نتجه إلى التعميم ، بحيث يكون ما نقوله مجرد قضية مسلم بها أو تحصيل حاصل : أى أن البصيرة العقلية ، مثل البصر الفعلى ، تعتمد بقدر كبير على مكان وقوف المرء ومدى الرؤية المتاحة له، أى تعتمد على ما قد نسميه بالمنظور . كما أن اللغات والتركيبات اللغوية المحلية ، مثل أنواع كثيرة من المنظور العقلى، هى أشكال أكثر تحديداً للتعبير فى الأدب أو الفلسفة . ولقد أوضح ذلك ڤيلهلم فون هامبولدت عندما كتب :

«إن كل لغة ترسم دائرة سحرية حول الشعب الذى يستخدمها ، دائرة لا فكاك منها إلا بالخروج منها والدخول فى دائرة أخرى»(٤) وسوف نوضح مراراً وتكراراً أهمية اللغة الثانية أثناء فترة التكوين بالنسبة للآداب القومية فى أوروبا - بعيدا عن أهميتها التعليمية فى حياة أجيال عديدة من المثقفين - لقد كانت اللغة اللاتينية هى اللغة الثانية فى مناطق واسعة من أوروبا على مدى عدة قرون من العصر المسيحى ، ولكن فى الفترات المتأخرة ، وبسبب ظروف تاريخية وقومية مختلفة ، لعبت اللغة الفرنسية أو الألمانية ، أو بعض اللغات الأخرى هذا الدور ، وبالطبع فقد كانت اللغة اليونانية هى اللغة الثانية للرومان المتعلمين . وفى الآونة الأخيرة، أجريت بعض المحاولات المتأنية للخروج من هذه الدائرة السحرية وذلك على يد بعض الكتاب الذين شعروا من داخلهم بتدهور لغتهم القومية أو عدم كفاية تركيباتها اللغوية ، وغالبا ما كان ذلك بسبب ضغط بعض الظروف الاجتماعية مثل الحرب أو النفى أو بسبب بعض الملابسات الاجتماعية الأكثر تعقيداً ، وهو ما حدث ، على سبيل المثال، فى الولايات المتحدة .

لقد زاد الاهتمام بوسيلة التعبير فى الأزمنة الحديثة ، ليس فقط فيما يتعلق باللغة، بل شمل الاهتمام أيضا وسيلة التعبير فى الفنون الأخرى، ولم يحدث هذا بين العلماء المفكرين فقط ولكن شمل الكتاب المبدعين أيضا ، وأضفى بعضهم بالفعل نوعا من الوقار الصوفى على اللغة ذاتها، فقد شعروا أنها أكثر واقعية مما تشير إليه الكلمات فى هذا العالم .

وربما كان هذا الاتجاه المتعاظم هو الشئ الوحيد الذى يمكن قوله لإضفاء نوع من الوحدة الشكلية على ذلك الكم الضخم من دراسات النقد الأدبى فى مختلف البلدان التى هربت من المناهج الفيلولوجية والتاريخية القديمة إلى الأدب. إن القول بأن بناء العمل الأدبى يمثل حقيقة مستقلة قد يكون مقدمة منطقية مقبولة لكثير من أتباع مذهب البنائية* من الفرنسيين وكذلك بالنسبة للنقاد الأنجلو- ساكسون الذين واصلوا تحليل الصور وقراءة النصوص قراءة فاحصة على مدى فترة طويلة .

---

* مذهب البنائية أو البنوية (Structuralism) :

هو واحد من أهم المذاهب الفكرية المعاصرة وأكثرها انتشاراً . وهو يدرس النماذج التى تكمن خلف السلوك الاجتماعى أو الحضارى وتكوين الأمور المادية . ويقدم هذا المذهب منهجا عقليا لتلك الميادين التى لاتربطها ببعضها رابطة مثل علم الأحياء والجيولوجيا والأنثروبولوجيا وعلم اللغة والنقد الأدبى . ويدرس المذهب البنيوى ، وهو قائم على نظرية الاتصال ، العلاقة بين الأشكال لاطبيعة الأشكال ذاتها ، وهو يجد لغة ما فى الإشارات والرموز ووسائل التعبير غير اللفظية فى حياة الحيوان وفى التجمعات العائلية ، وحتى فى العادات الاجتماعية ، مثل الملابس . وبتحليلها للظواهر المختلفة ، سواء كانت قصصًا أو مجتمعات ، أو نظمًا سياسية ، تكشف البنائية أطراً للاتصال تشترك معا فى ازدواجية بناء الإشارات ، ولاتستمد تلك الإشارات معانيها من طبيعتها الذاتية ، ولكن من وضعها فى علاقة مع بعضهما البعض. فإن اللون الأحمر والأخضر ، على سبيل المثال ، ليس لهما معنى فى حد ذاتهما ولكن عندما يستخدما فى المرور يصبحان رموزاً للخطر والأمان إن علم اللغة البنائى ، والذى يقدم نموذجا للتحليل البنائى فى مجالات أخرى ، يتعدى حدود معانى المعجم، ويركز على للمعانى أصغر وحدات من الكلمات. وهى Phonemes=

وينبع الشعور بالاختلاف القومي أساسا من طبيعة البحث الفرنسى ، الذى يكتسى مسحة فلسفية ، بل علمية ، أكثر جدية لاسيما ما تأثر منه بجاستون باستيلار (١٨٨٤-١٩٦٢) الذى كان مهتما بدراسة الطبيعة والتحليل النفسى إلى جانب اهتمامه بالشعر. ونلمح نفس هذا الاختلاف فى الجو العام كذلك فى الطريقة التى عالج بها الفلاسفة على كل من ضفتى القنال المشكلات الأساسية المتعلقة، بحالة الكلمات وذلك فى العقود الأخيرة . فقد تميزت الفلسفة الشكية البريطانية بنوع من عدم الاهتمام المغلق بالاسترخاء الاجتماعى أو المرح تقريبا ، حول إمكانية صياغة جُمل حول الحقيقة تكون مُلزمة على مستوى العالم .

= أصغر وحدات الصوت ، والـ morphemes ، أصغر وحدات الحس . وباستخدام هذا الأسلوب على اللغة، يمكن لعالم اللغة أن يصف تكوينها الأساسى وأن يفهم المبادئ التى تتطور بها .

ومنذ خمسينيات القرن العشرين ومذهب البنائية يؤثر بشكل كبير فى النقد الأدبى ، خاصة فى فرنسا حيث تطور علم الإشارات . وينزع النقاد من اتباع المذهب البنائي إلى اعتبار الأعمال الأدبية ظواهر منفصلة ، ولاينظرون إليها باعتبارها انتاج كاتب معين يعمل فى مكان محدد وزمن معين . ويهتم التحليل البنائى اهتمامًا كبيرا بالتفاصيل الصغيرة للأسلوب ، مثل الرمز وطريقة انتقاء الكلمات ، ومن ثم فهو يؤكد على تفرد كل عمل وعلى عناصر ترابطه الفريدة.

لمزيد من التفاصيل انظر :

Barthes , R . : Critical Essays (1964) , Ferdnande & Richard (eds) : The Structuralists (1972) , Lane M . (ed.) : Structuralism (1970)

(المترجمة)

بينما صاحب الشكوك الأوربية حول مسألة قدرة الطرق التقليدية وكفاءتها فى طرح المفاهيم حول العالم وصياغتها لغويا ، نوع من الريبة العميقة ، ولكنها ريبة خلاقة وربما كانت ثورية فى أحيان كثيرة .

ويمكن أن نجد فى الاتحاد السوفيتى مثالاً من أكثر الأمثلة إثارة للانتباه وذلك بسبب تأثير العوامل القومية والأيديولوجية على دراسة اللغة. فكما عَنَّف الماركسيون الفنانين والمفكرين الغربيين لاهتمامهم بشكل الفن أو بشكل الفكر (بدلاً من الاهتمام بالواقعية الاجتماعية) ، كان مذهب البنائية فى اللغويات والنقد الأدبى محظوراً بالفعل لفترة طويلة فى البلدان الشيوعية ، حيث ارتبط هذا المذهب بشكل عام «بالاتجاه للأمركة» وحتى وقت وفاة ستالين تقريبا .

ولكن عوامل أخرى مختلفة أسهمت فى تزايد الاهتمام بالمناهج الغربية منذ ذلك الحين ، كان من بينها إدراك أهمية وجود نظرية منهجية حول علاقة الكلمات بالمعانى فى العلوم التطبيقية ، مثل الاتصال الإليكترونى وأجهزة الترجمة وما شابه . ذلك بالإضافة إلى عدم وضوح الاتجاه الأيديولوجى الصحيح تجاه اللغة. أما عالم اللغة نيقولاى مار (Nikolay Marr) الذى كانت له السيادة معظم فترة حكم ستالين ، فقد طور بعض المناهج المختلفة لدراسة اللغة ، ولكنها فقدت قيمتها الآن، وهى قائمة على افتراضات ، منها على سبيل المثال، أن جميع اللغات تشتق من أربعة عناصر أساسية ، وأن التركيبات اللغوية القومية ليست لها أهمية خاصة ولاتحتاج إلى عقد مقارنات وأن مشكلات التعبير مجرد مشكلات هامشية فى مقابل الحقائق الاجتماعية غير اللغوية.

وفى عام ١٩٥٠ بدأ نقاش عميق ، وذلك عندما قام عالم لغة قوقازى بالهجوم على مار بخصوص بعض المسائل الاشتقاقية، ولأسباب ظلت غير واضحة ، حصل العالم القوقازى على تأييد ستالين، وانتهى النقاش الذى وصل إلى صفحات جريدة «البرافدا» بعزل مار ومدرسته بعد تدخل شخصى من ستالين الذى أرسى مبدأ أنه يجب النظر للغة باعتبارها نتاجا أسياسيا لايمكن فصله عن مجمل النشاط الإنسانى من القاعدة الاقتصادية إلى قمة الأيديولوجيا، لا باعتبارها مجرد ابتكار من جانب الطبقات الاجتماعية العليا. ويجب أن نضيف أنه بالرغم من أن العلماء الماركسين كانوا قادرين على جمع خيوط مناهج مذهب البنائية، سواء من الخارج أو من مدرستهم الروسية نفسها - والتى كان يطلق عليها اسم «الدائرة الكازية» فى بداية القرن- (وكان روادها بصفة عامة أتباع سوشير) ، فقد واصلوا تعليقاتهم التى تندد (ربما بقصد حماية الذات) بالمثالية الملازمة للبحث الغربى. ويجب القول بأن النقد قد ضرب على الوتر الحساس لدرجة أن نعوم شومسكى (Naom Cham-sky) نفسه قد ربط عمله بالبحث عن «الشكل الداخلى للغة» وهو ما آمن به مفكر مثالى نموذجى مثل همبولدت، وأيضا لدرجة أن النقد يكون وثيق الصلة بذلك المجال المحدود للغاية الذى يعمل به البروفسير شومسكى . ويشير النقد، مثل غيره من الأعمال النقدية الماركسية ، إلى ما تم تجاهله بشكل أوضح كثيرا من الإشارة إلى ما يجب تحقيقه، أى أنه يشير إلى الخطأ أكثر من الصواب . لقد كتب ماركس «فى لحظة محددة، سوف يتحكم الأفراد فى هذا الانتاج الموروث (لغة الحضارة) مثل غيره من أشكال الانتاج»[٥]. ولكنه لم يوضح بشكل كافٍ ماذا

سيكون تصرفهم بعد هذا التحكم ، باستثناء أنهم سوف يستمرون فى ممارسته وإستخدامه . وتبدو فكرة تحكم الإنسان فى المجتمع بطريقة عقلانية فكرة جيدة بحد ذاتها فى ضوء فرضيات ماركس الفلسفية .

ولقد كان أصل اللغة موضوعا للتفكير وللأساطير منذ أقدم العصور، ويحكى المؤرخ الإغريقى هيردوت (حوال ٤٨٤- ٤٢٥ ق. م) قصة ملك مصرى أمر بعزل طفلين رضيعين عزلة تامة لأنه كان شغوفا بمعرفة اللغة التى سوف يتكلمانها بشكل تلقائى .

ولقد جاء نفس هذا التساؤل على لسان الفلاسفة القدماء - قد يعود ذلك إلى وقت مبكر معاصر للفيلسوف فيثاغورس (٥٧٢-٤٩٧)- على هيئة سؤال : هل العلاقة بين الكلمات والمعانى علاقة ضرورية أم هى مجرد علاقة عرضية ؟

ويبدو أن هيراكليتس (حوالى عام ٥٠٠ ق . م) قد نجح فى تأكيده لمبدأ ما «للهوية» فى هذا الشأن مثلما فعل مع العديد من الأسئلة الميتافيزيقية الأخرى، تاركا الفلاسفة ، القدماء والمعاصرين ، غير متأكدين مما يعنيه (وهو ما يوصف بأنه استعلاء أرستقراطى) . وكان تأثير هيراكليتس كبيرا ، ومن المحتمل أنه ساعد فى إثارة الاهتمام بعلم الاشتقاق الذى ظهر خلال القرن الخامس ق . م (ولقرون عديدة تالية) ، وفى إظهار المعانى الخفية للأسطورة وما شابه ذلك ، ومن الواضح أن جزءاً كبيرا من عمله قد قام على أساس المعتقدات الدينية ومنها أن الكلام لابد وأن يكون إلهى الأصل . وبطبيعة الحال، فقد كان هناك فلاسفة ملحدون وعلماء مثل (ديموكريتوس) (حوالى ٤٥٠) الذى أنكر

ذلك على أساس أن الأشكال اللغوية تخضع للتغيير والتعديل . والآن قد توحى لنا شخصيات الآلهة الهومريين متقلبة الأطوار بأنهم كانوا مسئولين عن أداة الإنسان الناقصة . ولكن رغبة المفكرين الجادين آنذاك فى كشف غموض النموذج العقلانى للحقيقة من ظلمات الأسطورة الدينية كانت معروفة جيداً . ولقد حاول أفلاطون إنقاذ ما يمكن من الميتافزيقا القديمة بينما كان يفند اعتراضات العلماء الجدد. وبذلك دعم فكرة هيراكليتس العامة بأن بنيان اللغة يتوافق مع الفهم الإنسانى للأشياء ، ولكنه فعل ذلك من خلال توجيه التساؤل الفلسفى إلى منحى جديد. وفى المحاورة الأفلاطونية التى تحمل اسمه، نجد كراتيلوس مجرد مؤيد لهيراكليتس ومعارضا لهيرموجينيس . ونتيجة لمحاولة سقراط الوصول إلى حل وسط، نجح فى تحويل المناقشة من التساؤل عما إذا كانت هناك علاقة متبادلة بالمعنى الحرفى بين منطوق الكلمات والأشياء، إلى الأرضية الأفلاطونية المألوفة حيث يجرى البحث عن علاقة مثالية أكثر دقة بين الأشياء والأفكار. وهنا تصلح المبادئ المنطقية ذاتها للتطبيق على عملية البناء اللغوى كما تصلح للتطبيق على عملية التفكير .

ولقد استمرت فكرة أن «الكلمة» لابد أن تكون من أصل إلهى محل اهتمام، خاصة بالنسبة لعلماء اللاهوت، حتى القرن الثامن عشر، عندما قوبلت بالتحدى مرة أخرى من قبل العقلية الأكثر علمية التى أنتجت نظريات عقلانية وإن كنت تفتقر إلى عنصر التأمل، حول الطريقة التى اخترع بها البشر اللغة قديما. بالإضافة إلى ذلك ، ونتيجة لتناقض

الثقافة الكلاسيكية المحدثة ، لم تعد اللغات الأساسية ذات الأهمية قاصرة على اللاتينية واليونانية . فقد أنتج الفضول العلمى الذى صاحب عصر النهضة مجموعة من المعلومات عن مئات اللغات الأخرى من بينها السنسكريتية ، «لغة الأدب القديمة» فى الهند .

ولم ينجح الدارسون الكلاسيكيون مطلقا فى إيجاد علاقة ، بشكل مرض، بين اللغات الأوربية التى ترتبط ببعضها البعض بشكل واضح ولقد نجح أحد علماء اللغة السنسكريتية الأوائل. هو وليم جونس (١٧٤٦-١٧٩٤) فى تأكيد أن اللغات السنسكريتية واليونانية واللاتينية والقوطية والكلتية مشتقة كلها من لغة واحدة مشتركة لم تعد موجودة الآن. ولم تتضح أهمية اكتشافه هذا على نطاق واسع فى البداية، ويرجع ذلك إلى أسباب اجتماعية تاريخية (سوف نذكرها حالا) من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى أسباب فلسفية . ويجب فى البداية تحديد الأهمية الفلسفية للمنهج الوراثى والمنهج المقارن ، وفوق كل شئ المنهج التاريخى للدراسة (وليس فيما يتعلق باللغة فقط) . لقد ظل الاهتمام الرئيسى للعصر ، مثلما كان الحال فى عصور كثيرة سابقة ، منصبًا على منطق النحو. وربما يكون الكتاب الذى يحمل عنوان : الآجرومية العامة المنطقية "Graummaire generale et raisonee" أعظم تعبير عن هذا الاهتمام، وهو نتيجة عمل مجموعة من فلاسفة النحو فى بورت رويال. ولأن المنطق عنصر عالمى ومشترك بين جميع البشر، فقد كانت حجتهم أنه يمكن إخضاع التركيب الأساسى لجميع اللغات التى يحتمل وجودها فى العالم بشكل صريح لنظرية نحوية

واحدة . ولقد زاد الإقبال على هذا النمط من علم النحو الفلسفى فى كل أوربا آنذاك . فقد تم طبع كتاب جيمس هاريس James Harris

«هرميس ، أو تسأول فلسفى حول اللغة وعلم النحو العالمى»

"Hermes,or a Philosophicsal Inquiry concerning language and universal Grammar 1751"

خمس طبعات حتى عام ١٧٥٤ ، وتمت ترجمة الكتاب إلى الألمانية والفرنسية .

ومن ثم، يمكن القول، بصفة عامة ، أن العلامة التى وضعها أفلاطون على موضوع اللغة (وذلك فى معرض تناوله العام لنظرية المعرفة* ككل)

---

* نظرية المعرفة (Epistemology) :

وهو مصطلح مشتق من الكلمة اليونانية episteme بمعنى معرفة ، وكلمة Logos بمعنى نظرية . والإبستيمولوجى أحد فروع الفلسفة وموضوعه طبيعة وحدود المعرفة ، ويدرس بناء المعرفة وأصلها ومعاييرها . كما يدرس مجموعة من المشاكل المرتبطة بهذا الموضوع مثل : الإدراك ، العلاقة بين الشخص المدرك والشئ المدرك ، الأنواع المحتملة للمعرفة ودرجات اليقين فى كل نوع من أنواع المعرفة ، طبيعة الحقيقة ، وطبيعة الاستنتاج ومبرراته .

ولقد ظهرت نظرية المعرفة فى البداية فى بلاد اليونان القديمة مع ظهور السوفسطائيين ، الذين أنكروا إمكان المعرفة . فنجد أحدهم ، بروتاجوراس ، ينادى بأن الإنسان الفرد هو مقياس جميع الأشياء، وبما أن المعرفة تعتمد على التجربة الشخصية فإنها نسبية. وكانت آراء سقراط وأفلاطون رداً على مبدأ نسبية المعرفة=

لم تمح تماما. والسؤال عن أصل اللغة لا صلة له بالسؤال عن منطق اللغة. ولكن الخطوط الفاصلة بين السؤالين قد شوهت مرة أخرى فى عنفوان التفكير الميتافيزيقى أواخر القرن الثامن عشر فى ألمانيا . ومنذ ذلك العصر الرومانسى فصاعداً ، بُذلت محاولات عديدة لإعادة صياغة الفرضيات الأساسية والمنطقية حول موضع العقل من العالم فى النموذج الأفلاطونى.

وبشكل عام كان هذا النموذج يُفسر على أنه يعنى أن الكون نفسه لايتكون من وحدة واحدة وإنما يتكون من ثنائية ينبغى التمييز داخلها بين المظهر والحقيقة ، أى بين الأشياء والمفاهيم. وكان من الطبيعى أن تتجه المسيحية إلى تدعيم مذهب ينادى بأن العلاقة بين كلمة الإنسان

= فقد حاول سقراط أن يعرف الشئ بخصائصه الأساسية بدلا من الاعتماد على آراء الأشخاص، وهى نسبية وتختلف من شخص لآخر وكانت موضوعية أفلاطون المعرفية أيضًا رداً على آراء السوفسطائيين . فهو يستعرض فى محاورة ثياتيتوس عدة تعريفات للمعرفة ، ولكنه ينكر الرأى الذى يقول أن المعرفة هى الإدراك ، لأن الحواس المشتركة فى عملية الإدراك تعتمد فى وجودها وفى طبيعتها على حالة الشخص المدرك .

لمزيد من المعلومات انظر :

Ayer , A : Theory of knowledge (1956) , Butcharov , p. : The concept of knowledge (1970), Chisholm, R . M . : Theory of Knowledge 1977 Russell , B : The Problem of Philosophy (1412) .

(المترجمة)

والحقيقة السرمدية الثابتة يمكن فى أحسن الأحوال أن تكون علاقة رمزية، أى يجب فهمها بطريقة مختلفة تمام عن الطريقة التى نفهم بها المعلومات المجردة (وهكذا فإنه يمكن بالطبع اعتبار أن الوحى المقدس يعطى للبشر ذلك «الأحسن» بصورة رمزية أى أقصى ما تسمح به ظروفهم الدنيوية) وقد تعرضت مصداقية هذا المثال للتحدى فى مجال التطبيق ليس بسبب الرغبة فى مجرد تأمل الحقيقة كما لو كانت شاطئا نائيا مثاليا ، وإنما أيضا بسبب الرغبة فى الإمساك بالحقيقة والتصرف على أساسها. وقد تمت أيضا معارضة النموذج بطريقة حتمية فى مجال النظرية على يد المفكرين الذين استجابوا للطموحات الثورية لعصر العقل بطريقة شديدة الرومانسية وبمنتهى اللاعقلانية . ولقد ادعت الماركسية أنها الوريث الأساسى لمذهب المادية العلمية الذى ساد فى عصر التنوير ، ولأنها كانت تصبو إلى أن تتملك بواسطة العقل البيئة المحيطة امتلاكا تاما، فإنها لم تصنع وحدة منطقية بين اللغة والفكر فحسب ، بل أرست قواعد عملية جدلية للتقارب ، بحيث تربط بين الحقيقة والتفكير العقلى. وعلى الرغم من ذلك ، فقد لازم العقل الأوربى الحديث ، فى الوقت نفسه ، تصور مختلف تماما لوحدة الوجود، غذاه بمشاعر الاغتراب عن الحاضر ، وجعله لايتجه إلى المستقبل لفهم المشكلة وإنما يتجه للماضى السحيق، صوب الأساطير والميتافيزيقا قبل سقراط .

ولقد اقتضى ذلك رفض مجموعة القيم الأفلاطونية المسيحية أو جدد التفكير فى التصرفات الأساسية للوعى الإنسانى ، ومن ثم فى أصل اللغة ووظيفتها .

ولذلك ، وعلى الجانب الآخر للتطرف الأيديولوجى من الهجوم الماركسى على النزعة الشكلية* ، يجب أن نشير إلى دفاع واحد من أوائل الشعراء الذين استحوذت عليهم بشكل جلى مشكلة أصول الكلام ومراحل خلقه ، ونعنى به إطراء هيدجر لشعر هولدرلن. فما من شاعر ربط بين سر لغة الشعر وسر الحضارة بشكل عاطفى أكثر منه . وبالنسبة لهولدرلن كانت حضارة بلاد اليونان القديمة هى الشكل الأمثل للحضارة. ولقد قال هيدجر عنه نفس ما قاله شارلس ويليامز عن وردز وورث - معاصر هولدرلن- من أن عمله بشكل أساسى عبارة عن «شعر يكتب الشعر» ، ويمكن أن يقال نفس الشئ بالنسبة للعديد من الشعراء الرومانسيين فمهما كانت الأسباب الاجتماعية التى طُرحت لتبرير خجل

---

* النزعة الشكلية (Formalism) :

نزعة تنادى بتغليب الشكل والقيم الجمالية على ما فى العمل الفنى من فكر وخيال وشعور ، مرهصة بنظرية الفن للفن ، تلك النظرية الحديثة التى أخذت تنافس نظرية المحاكاة التى نشأت مع نشوء الفن . وعلى حين تربط نظرية المحاكاة بين الفن وبين التجربة الإنسانية خارج نطاق الفن الذى هو مرآة مباشرة للحياة يغتذى منها ويرمى إلى إيضاحها ، ترى النزعة الشكلية أن الفن السوى منبت الصلة بالأفعال والموضوعات التى تشكل تجاربنا المألوفة ، وذلك أن الفن عالم قائم بذاته ، وهو غير مطالب بتسجيل مجريات الحياة أو الأخذ عنها ، فلا معنى أن يكون مستقلا مكتفيا بذاته .

لمزيد من المعلومات حول النزعة الشكلية انظر :

Frich, V . : Russian Formalism : History - Doctrine (1965) .

(المترجمة)

المعاصرين ، فإن ما بداخلهم قد دفعهم إلى الربط بطرق عديدة بين غموض الكلمات وغموض الوجود ، وأن يشوهوا الحدود بين الذات والعالم .

ومن ثم ، فقد كتب هولدرلن عن موهبة اللغة بنوع من الرهبة الصوفية : «لقد مُنح الإنسان ، شبيه الآلهة ، القوة العليا كى يحكم ويدرك، ولذلك فقد أعطيت له اللغة ، وهى أخطر ما يمكن امتلاكه ، وذلك حتى يُخلق ، ثم يُحطم ويفنى ثم يعود إلى معلمته الأم الخالدة ، ويمكن أن يثبت شخصيته وأنه قد ورث وتعلم منك أقدس ممتلكاتك ، الحب الدائم»[٦] .

و«المعلمة الأم» عند هولدرلن هى الرحم الخصب لكل الكائنات الحية، وليس للحب فقط ، والطبيعة هى تجسيده والشعر هو صوته الموثوق به . وكان امبيدوكليس هو رمزه الأخير على هذه العودة ، وذلك عندما ألقى بنفسه من جبل آتنا وبحياته التى أدت به إلى الجنون . ولكى نقدّر رأى هولدرلن فى اللغة ، فإننا لانحتاج سوى إلى مقارنته برأى عالم عقلانى مثالى مثل لوك . إن تفسير لوك لقوة الكلمات (والذى ورد فى مقالته "Essay concerning Human Understanding"

يأتى كله من خلال مصطلحات مثل «الاستخدام الشائع» والإدراك العام للبلد الذى تستعمله . وقد تبع هذا التفسير الاجتماعى الواضح عدد كبير من كتاب القرن الثامن عشر، فهيوم ، على سبيل المثال ، يصرح أيضا «بأن اللغات قد نشأت بشكل تدريجى بسبب التقاليد الإنسانية »[٧] .

إن اختفاء مثل هذه النظريات المستنيرة عن اللغة يبدو دائما فى النهاية أكثر جاذبية للمتزمتين أكثر مما يبدو للشعراء . فكم من علماء النحو والمدرسين ورجال القانون قد شغلوا أنفسهم فى ذلك العصر، وفى كل العصور الأخرى، بتحديد القواعد «الصحية» لاستخدام الكلمات. فإذا كان معنى الكلمات يتحدد «فقط من خلال العادات والنظم الاجتماعية ... أى من خلال العرف والاتفاق»[٨] ، وهو ما يؤكدونه لأنفسهم من خلال الإشارات العلمية لأرسطو وهوراس وكونتليان ، فإن ذلك ليس سوى خطوة صغيرة من العرف، الذى افترض لوك وهيوم أنه ينشأ بطريقة حرة ، إلى إقامة المؤسسات الحقيقية والأكاديمية وما شابه ذلك، والتى تهدف إلى تنظيم استخدام اللغة. وكانت مثل هذه الأكاديميات من بين الملامح الدائمة للثقافة الكلاسيكية المحدثة فى كل أنحاء أوربا .

ويجب أن نذكر بعض النقاط الأخرى فيما يتعلق بموقف هولدرلن من اللغة والمغزى الفلسفى لذلك عند هيدجر . فأولا : كان هولدرلن تلميذا صديقا لهيجل ، اختلطت فى ذهنه الميتافيزيقيات المثالية بشكل من التعميم التاريخى ، بطريقة كان لها أكبر الأثر على الحضارة الأوربية ، كما تدين فلسفة هيدجر بالكثير لهيجل . ثانيًا : لقد نشأ هولدرلن تحت تأثير الحركة القومية لإحياء الشعر، والتى شجعت المشاعر الصوفية حول مفهوم الشعر ومفهوم الأمة .ثالثا : لقد أدى ذلك الجو الذى ساد فى ألمانيا وفى اسكندنافيا أيضا، وتسبب فى إحساس الثقافة الاسكندنافية بأنها أفضل من الميراث الكلاسيكى القديم، إلى الاهتمام بفقه اللغة غير الكلاسيكية : أى الاهتمام بأصول اللغات الأوربية القومية وتركيبها

وأيضا الاهتمام بآدابها التى طال إهمالها ، خاصة القصص الشعرية الغنائية الشعبية (ballads) والروايات المطولة التى تحكى قصة عدة أجيال فى أسرة واحدة (Sagas) ، والأهم من ذلك أنه أدى إلى ظهور مفهوم جديد لفقه اللغة الذى اعتمد لعدة أجيال سابقة على نحو اللغة اليونانية واللاتينية والاشتقاق منهما .

وإذا ما وصفنا أساس فقه اللغة الحديث، الذى أقامه رجال مثل راسك وجريم وبوب وشلشر ، بأنه «رومانسى» فسوف يكون وصفا مضللا . ولكن قد يكون من المفيد أن نذكر بعض الحقائق عنهم . فقد كانوا جميعا ألمانا أو دنماركيين . ولقد تصوروا اللغة كائنا عضويا - كان جريم هاويا لعلم النبات الذى أولاه اهتماما بالغا ، وتوقعوا أن يتبع فى نموه النموذج المثالى للتطور . ولم ينظروا تجاه الماضى فقط بحثا عن الأصل الذى قامت على أساسه كل الحضارة الأوربية ، ولكنهم اتجهوا بأنظارهم كذلك تجاه الشرق ، وهكذا تجاوزوا فكرة تفوق الحضارة الكلاسيكية القديمة (ولقد سافر رازموس كريستيان راسك بالفعل إلى الهند : فقد كان تأثير الشرق على خيال عديد من كتاب الجيل الرومانسى فى ألمانيا كبيرا ، بالإضافة إلى أن علماء فقه اللغة الآخرين قد اعتبروا أوربا جزءاً من حضارة أكبر كانوا يطلقون عليها فى الغالب اسم الحضارة الهندو-جرمانية ، والتى اعتقد نصفهم بأنها حضارة عالمية ، فإن هولدرلن ، على سبيل المثال ، يرحب بالضوء ، الذى سطع من بلاد اليونان القديمة، باعتباره ينتمى لآسيا ، ويجد شوبنهور النموذج الأول لتجربة الإنسان الروحية ، والذى يفسر به العلاقة بين جميع أنواع الفن والدين فى

الصوفية الهندية . وأخيراً بحثوا عن سر اللغة من خلال دراسة الأصوات وعلم الصرف (علم تكوين الكلمات وتركيبها) ، وليس من خلال دراسة العادات الاجتماعية أو علم النحو الكلاسيكى. ولقد ربط جريم «قانونه» ، الذى قد يعتبر مثالا لطريقة تفسير علماء القرن التاسع عشر لعلم الأنساب فى اللغة الهندو - أوربية فى ضوء نقل الصوت وربطه بنفسية شعبه وبالرغبة المتزايدة فى الحرية والتى سادت بين الألمان : «عندما عاد الهدف ، وعادت المبادئ الأخلاقية ، ظلت الأصوات ساكنة، ويمكن اعتبار ذلك دليلا على عراقة القبائل القوطية والساكسونية والاسكندنافية واعتدالها ، فقد اكتفوا بأول تحوير للصوت ، بينما دفعت القوة الطائشة الألمان إلى التحوير الثانى» (٩).

ولم يبق هذا النوع من فقه اللغة الرومانسى حتى القرن العشرين إلا فيما ندر (فيما عدا الواجبات المدرسية) . فقد هُزم من ناحية بسبب ما اعتاد اوتوجسبرسين أن يسميه «الجوانب المتعددة للحياة اللغوية ، بتناقضها البسيط وتعسفها» . ومن ناحية أخرى تم استبداله ببعض الجهود الجادة فى علم اللغويات والتى سبق ذكرها . وقد تم حفظ الاهتمام الميتافزيقى بالوظيفة الخلاقة للغة ، بشكل أساسى، على يد الفلاسفة الوجوديين وبالطبع أيضا على يد الكتاب المبدعين أنفسهم . وهكذا ، فإن نيتشه ، على سبيل المثال ، يشارك هولدرلن فى الإيمان بوجود قوة غامضة تتمتع بها الكلمات بالإضافة إلى إيمانه بأن هذه القوة قد تدهورت فى وقت مبكر فى الحضارة اليونانية ، وبالمثل يفكّر هيدجر فيما إذا كان العقل الغربى قد أساء فهم علاقة الكلمات بالواقع بشكل متكرر على مدى أكثر من ألفى عام .

ومن الواضح أن ذلك قد حدث لأن إحساس العقل الغربى باللغة قد أدى إلى فصلها عن الوجود، ومن ثم أدى إلى عزل المشاعر فى منفى روحى أو اغتراب، كما اختصر العالم الخارجى كذلك إلى مجرد هدف أو غاية . وهو يعتقد أن المعانى الأصلية للكلمات اليونانية[١٠] كانت ثرية فى تعبيرها عن الجوانب الفيزيقية - الميتافيزيقية للحياة - وهو يجد هذه المعانى «سليمة» فيما بقى من كتابات (وإن كانت على هيئة شذرات) ترجع إلى فترة ما قبل سقراط وأفلاطون . وينبع تفسيره لهذه الفترة من ذلك الاعتقاد الذى صاغه نيتشه ذات مرة : لقد كان هناك وقت ما كانت فيه القيم الدينية والجمالية والأخلاقية للإنسان واحدة»[١١] ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحضارة عبارة عن قصة التقسيم المتزايد لروح الإنسان ضد ذاته الكلية الحية، وخلال تلك العملية كان هناك تزايد فى المعرفة ، ولكن النتيجة كانت خسارة فى القيمة المحسوسة فى العالم.

ولايعنى هذا أن نقول أن ذلك التقسيم أو الجدل ، أو لنقل الصراع ، لايكمن فى طبيعة الوجود، ولكن الرجل الغربى - كما يدعى الوجوديون بشكل عام - قد أساء فهم معنى ذلك الموقف .

ويقتبس هيدجر قول هيراكليتس : «إن الصراع بالنسبة لكل (الموجودات) هو الخالق الذى يسبب ظهورها ، وهو أيضا الذى يحفظها ويسيطر عليها. فهو الذى يجعل البعض يبدو كآلهة والبعض الآخر كبشر وهو يخلق البعض كعبيد والبعض الآخر كرجال أحرار» (شذره ٥٣) .

إن عملية التفكير التقليدية لدينا والتى تنبع من تصورنا للغة، تجعلنا نعتقد أن العقل «يهاجم شيئا موجوداً بالفعل» وفى الحقيقة فإن

الكلمات ، ليست أقل من الأفعال في أنها تعكس وتنمي ما لم نسمعه وما لم يُقل وما لم نفكر فيه حتى ذلك الحين. وبالتالي تستمر المعركة على يد المبدعين والشعراء والمفكرين ورجالات الدولة. ففي مقابل الفوضى الساحقة ، يقيمون حدود عملهم ، وفي عملهم هذا فإنهم يأسرون العالم المندفع ... إن هذا البناء للعالم هو التاريخ «بمعناه الحقيقي»(١٢) .

ويكتنف التناقض مسار تفكير هيدجر- ودون الدخول في ذكر جوانب الغموض فيه- وذلك لأنه يحاول بطريقة منهجية أن يطور فكرة أن اللغة لاترتبط بالحقيقة في علاقة منهجية وإنما علاقتها بها هي علاقة خلاقة أكثر (أو كما قد يقول هو أنها علاقة كاشفة) . والفروق الضئيلة التي يستخدمها في تفسيره لما تفعله اللغة تعتمد أكثر على استخدامه للغة الألمانية ، التي يدعي أنها تشبه اللغة اليونانية فيما يتعلق باحتمالات التفكير ، وأنها كانت ذات مرة أقوى اللغات وأكثرها روحانية ، فبينما توحي الكلمة الإنجليزية - اللاتينية Revelatory بمجرد كشف القناع عما هو موجود هناك بالفعل ، فإن هيدجر يستخدم سلسلة من الكلمات الألمانية مثل (offenbaren entschliessen , entberges) بطريقة تجعل من الصعب ترجمة معانيها .

إن مناقشة العنصر «الكاشف» في انيادة فرجيل التي توضح ما كانت الملحمة تبذله من جهد ضروري لتوضيح - بمعنى يضع ويكشف- مصير روما الخفي، ويمكن الإشارة إليه في معرض تأييد أطروحة هيدجر . وفي الحقيقة، باستثناء هذا ، فإن فلسفة هيدجر غير المكتملة قد تكون مفيدة بشكل عام لطلاب الأدب .

وترجع ميزة هيدجر إلى أنه يركز الاهتمام على ما يسمى بالتورط الوجودى للغة بما هو موجود » . فإن المنطق والعلم لايمكننا من إدراك ماهية العالم بشكل كامل ، ولكن الحياة والأدب يكشفان لنا ذلك عن طريق الكلمات . ولذلك السبب يعلن هيدجر «أن إساءة استخدام اللغة فى الحديث العقيم وفى الشعارات والجمل يحطم علاقتنا الأصيلة بالأشياء ولنفس السبب فإنه يعتقد أن الفلسفة والشعر فقط يمكنهما إعادتها إلى حالتها الصحيحة. فقد كان بإمكانه إيقاظ الشعور الحقيقى فى نفس عالم اللغة ، الذى كان عليه أن يحب الكلمات كما يحب الفيلسوف الحكمة، لا أن «يقوم بتشريح اللغة بشكل آلى وبدون القواعد» ... لقد حُبست اللغة واللغويات فى تلك الأشكال الجامدة كما لو كانت موضوعة فى شبكة من الصلب» .

لقد تأثرت طرق التفكير الأوربية بشدة بطرق تفكير الفلاسفة اليونانيين فى اللغة اليونانية ، لقد تأثرت ، على سبيل المثال، بتمييز أفلاطون (فى محاورة السوفسطائى) لمكونات الجملة الأساسية من اسم وفعل- كما تأثرت بتحليل أرسطو للجمل بطريقة فرقت بين البلاغة أو الشعر ومنطق القضايا الحقيقية . ورغم أن ملاحظة أرسطو بأن الفعل «يكون» والفعل «يوجد» لايعنى الشئ نفسه، قد تكون الآن ملاحظة بديهية ولاضرر منها (إذ أن عبارة «هوميروس شاعر» لاتساوى فى معناها عبارة «هوميروس موجود») ذلك أنها تشير إلى أحكام الغير التى اعتمدت حضارتنا عليها بشكل غير مأمون منذ ذلك الحين من وجهة نظر هيدجر . وكان أثر هذا هو أنه أدخل على إحساسنا بالحقيقة

نوعا من التفرقة بين حقائق الوجود المجردة والأقوال الحقيقية ، إلى حد ما ، التى تتناول الوجود. وكانت نظرية الحكم أو الإثبات نظرية أساسية بالنسبة لنظرية أرسطو عن اللغة. فهو يعتبر الأفعال أيضا ذات وظيفة تأكيدية ، ومن ثم فإن الفعل «يكون» (الذى يعتمد عليه التأكيد كله يتطلب قيمة منطقية تخضع لها جميع المعانى والصفات وحتى الأفعال .

إن أهمية هذا الاختبار العقلانى لحقيقة القضية هى التى حطمت بطريقة كاملة عالما كاملاً من الحقائق الأساسية ، وعزلته وحاولت تجنبه كمعلومة علمية - باعتباره متميزاً عن وحدانية الوجود وعن الحياة التى يحياها البشر فى وحدة لاتنفصم عراها بين الوعى الخلاق والحقيقة الموجودة .

إن أحد الموضوعات التى سيتكرر الحديث عنها هو الطريقة التى ترتبط بها المعرفة بالوجود ، والعلم بالأدب والتعليم بالنحو والفن- أى الريطوريقا بدراسة الكلاسيكيات المعيارية فى اليونانية واللاتينية . ومما لاشك فيه أن المثال الكلاسيكى فى الأدب والفلسفة كان يبدو فى بعض الفترات فى عيون أصحاب النزعة الإنسانية الذين ينظرون بلهفة وحزن للقرون الماضية ، كان يبدو أكثر كنموذج مُحكم وليس كصراع خلاق كما كان فى الواقع . وتحت هذا الوهم الثقافى ، الذى يؤمن به عدد قليل فى عصرنا الحاضر ، توجد كما كانت توجد دائما ، بعض المشكلات المباشرة والجريئة لصراع الإنسان المستمر والدائم لتحقيق الحضارة. وما زالت التأكيدات والتكذيبات الفظة تسيطر على الأمور السياسية فى حياتنا اليومية ، ولقد أدرك أفلاطون بالفعل الجانب العملى الملح للمشكلة التى

تمثلها ، وعالجها مرة بعد أخرى فى محاوراته . ولقد ظلت المشكلة مرتبطة أيضا باسم أعداء أفلاطون أى بالسوفسطائيين ، وهذا يذكرنا بالأهمية الاجتماعية للنقاش الذى ركز الاهتمام الفلسفى على الطريقة التى تُستخدم بها اللغة . وهناك مقولة ماركسية تؤكد- وذلك لأسباب عديدة نحن فى حل من ذكرها- أن الفلسفة قد حُرفت عن مسارها الحقيقى أيام أفلاطون(١٣) . وتبقى حقيقة أن الفيلسوف فى بلاد اليونان القديمة قد سلم بأن العبيد يجب أن يوفروا له بعملهم متطلبات الحياة اليومية ، أو على الأقل بتكلفة قليلة ، وذلك قد سمح له بأن يحول فكره إلى مجال العلم التأملى الحقيقى- مثل المناقشات حول الوجود والكينونة - بدلا من الاهتمام بالمشكلات الواقعية المتعلقة بالإنتاج والتوزيع . ورغم ذلك ، فقد تم اختبار العلاقة بين الضرورى والوجودى، بين العلم والتاريخ بين الحقيقة والكلمات مرة أخرى بطريقة غاية فى الحدة فى العالم الشيوعى فى القرن العشرين .

يعلق سولزينتسن ، فى روايته «الدائرة الأولى» تعليقا يثير الحزن على اللغة باعتبارها أداة مثالية للتحكم العلمى : ففيها ، نجد البحث اللغوى يسهم بدوره فى تقنية الطغيان ، بينما يبرهن مرة أخرى على صحة الحقيقة «العليا» التى تتجسد فى التجربة الفردية التى تفسرها لنا لغة الخيال فقط .

وفى الختام ، فمن المناسب أن نتذكر كيف أنه قد تم تناول موضوع علم الأساطير مرة أخرى فى الأزمنة الحديثة بجدية عقلية متجددة . وأنه قد تلقى حافزاً مناسبًا من البحث الفيلولوجى فى القرن التاسع عشر

والذى ساعد وقتذاك (مع علم اللغويات) على تخليه عن بؤرة الاهتمام. لأن علم الأساطير يوفر أرضية مشتركة للأنثروبولوجيا الاجتماعية ولعلم النفس ولفقه اللغة وأيضا لفهم النقد الأدبى ، وإن كان بطريقة غير مباشرة وترجع أهمية علم الأساطير بالنسبة للدراسات الأدبية فى جزء منها ببساطة إلى إستخدام الكتاب المتكرر للأساطير عبر العصور المختلفة ، حتى فى عصر يتميز بنزعته الشكية مثل عصرنا الحالى، لقد أحس الشعراء بحاجتهم إلى إعادة صياغة الأساطير الأدبية (وذلك لأسباب سوف نتناولها فيما بعد) . ورغم ذلك ، فقد تم اكتشاف جزء من فائدتها للتحليل الأدبى على يد النقاد الذين تأثروا بفلسفة ارنست كاسيرر (١٨٧٤-١٩٤٥)[١٤] . فقد وضح كيف يمكن لعلم الأساطير أن يلقى الضوء على الطريقة التى بها تصور العقل الحقيقة فى الأصل ، بمعنى ميلاد الصور الأساسية ، وبشكل تدريجى تولدت المفاهيم المنفصلة التى تشكل العالم كما نعرفه . وهو يعتقد أن الخيال الذى يصنع الأسطورة يعمل بنفس أسلوب الخيال الذى يصنع الكلمة ، ولقد كتب يقول : «علينا أن نتتبع مسار الأسطورة واللغة ... وحتى النقطة التى انبثق منها هذان الخطان المتشعبان ... إن نفس الشكل للإدراك العقلى بالغ التأثير فى الاثنين . والشكل هو الذى قد يشير إليه المرء باعتباره تفكيرا متحولاً»[١٥].

ويتشابه تحقيق كاسيرر للغة فى بعض الوجوه مع محاولات هيدجر المتباهية فى الفهم الميتافيزيقى الجديد للوجود ، ولكن تحقيق كاسيرر يمتاز بعدة مميزات واضحة . فهو يمتاز بسهولة فهمه لأن كاسيرر يحصر

نفسه فى تحليل التكوينات المتاحة للغة دون أن يحاول الذهاب إلى ما وراء ذلك لصياغة طبيعة الوجود بأشكال جديدة للفعل . بالإضافة إلى ذلك ، فإن كاسيرر لايرفض م' حققه علم النحو الأكثر رقيا ، ومن ثم التفكير الأكثر منطقية ، من نزعة عقلانية متقدمة ومن تجريد . وهو يعترف بأنه «إذا كانت اللغة تنمو لتصبح وسيلة للتفكير وللتعبير عن المفاهيم والأحكام ، فإن هذا القدر (من النمو) يمكن أن يتحقق فقط بالاستغناء عن ثراء واكتمال التجربة المباشرة». ولكنه يصر على أنه عبر الشعر يمكننا الحصول على منفذ للقوة الأصلية التى تكمن فى الغة، قوة بصيرتها الأسطورية إلى العلاقة الشخصية المباشرة للنفس مع العالم. ولايعنى هذا عجز أشكال البصيرة» الأكثر تجريداً ، أو أن القاعدة الخلاقة لعلاقتنا بالعالم يمكن أن تتسع مرة أخرى لتتحول إلى قاعدة منهجية أو اجتماعية . فتلك الأنظمة يمكنها فقط أن تكون سحرية ، مثلما كان يحدث فى الأزمنة البدائية عندما كانت المجتمعات تعتمد على نظم تؤمن بالخرافة أكثر من اعتمادها على النماذج العقلانية . ويتمتع اعتراف كاسيرر «بحدود» التفكير المتحول بنفس أهمية هجومه على تقسيم أفلاطون للعالم إلى جزئين - وهو التقسيم الذى يرى أنه مسئول بشكل كامل عن وجهة النظر الحديثة للحقائق باعتبارها «حقيقة» وللقيم كمجرد «تصورات» .

وفى الحقيقة تُعد فلسفة كاسيرر نقداً حقيقيًا للغة ، حيث أنها تميز بين الوظائف المختلفة بالضرورة وبين المراحل المتطورة للغة، ومن ثم فإنها تشكل قاعدة غير شكية لتقدير كم الحقيقة الموجودة فى أى سياق.

ونتيجة لذلك ، كان كاسيرر يتجنب الاتجاه الغامض واللاعقلانى فى تفكير هيدجر ، والذى قد يظهر فى الاقتباسات القليلة التى أوردناها من قبل، حيث يُفهم ضمنيا أن المبدعين والشعراء والمفكرين والساسة يوجدون فى نفس الشريحة وأن عملهم يخضع لنفس المبدأ الخلاق .

إن التعقيدات السياسية لتطبيق مفهوم واحد ، مثل مفهوم الصراع (الذى اشتقه هيدجر مثل نيتشه من هراكليتس) على نشاط كل من الشعراء والسياسيين قد تكون وخيمة العاقبة . فاللغة بالتأكيد هى وسيلة الإنسان فى حياته المتحضرة ولكنها لاتمكنه بمفردها من السيطرة الخلاقة على مصير المجتمع (مهما كانت فاعلية الصلاة أو الشعر أو الترانيم الفلسفية الخاصة بالنسبة للفرد) . ويمكننا أن نضيف أيضا فى هذا السياق ، أنه بالرغم من أن كاسيرر مدين بشكل واضح للفلسفة الألمانية المثالية ، فإن مثاليته معرضة تماما ، وبشكل مكشوف، للنقد الماركسى وذلك لأنه يعول على التفاعل بين الأشكال الاجتماعية والأشكال اللغوية .

«إن ما يتم اختياره من النسق العام للانطباعات الشعورية وما يلاحظ من بينهم ، أى ما يلقى تركيزا لغويا ، أى اسما ، هو فقط ما يثبت أنه أساس لمشروع الحياة والنشاط ككل»[١٦] .

ويمكننا أن نصف موقف كاسيرر بأنه موقف وسط ، قابل للتوسط بين الفلسفات القائمة على منطق المفاهيم والفلسفات القائمة على علم الأشياء. وهكذا فإنه يضع اللغة فى «المنتصف» ، فهى الوسيلة التى تتحرك عبرها التجربة المحسوسة إلى المفاهيم المجردة ، ومن موقعها من هذه العملية تكتسب اسمها .

وليس هناك معنى لإعلان أن طرفًا واحداً من هذه العملية أكثر «واقعية» من الطرف الآخر ، ولكن وعلى حد سواء ، لايجب علينا أن نقفز إلى الاستنتاج بعدم وجود «قيم فى الواقع» وذلك بسبب حقيقة أن تصريحات القيمة من هذا النوع غير معقولة . إن القيمة تتحقق من خلال الامتلاك الكامل للعام والخاص ، ومن خلال ذلك الاندماج الغامض الذى يكون علامة على العظمة فى الأدب . زيادة على ذلك ، فإن المجتمع المتحضر يحاول أن يجمع بين رفاهية المجتمع ومصلحة الفرد- دون أن يهمل أيا منهما ، ودون أن يساوى بينهما بطريقة تعسفية . وهكذا يكون الأدب مرآة للمجتمع ، بمعنى أنه لايقدم لنا تقريراً حرفيا ولكن يعطينا مستوى مثاليا لما هو واقعى .

إن التشابه بين اللغة وعلم الأساطير ، والذى أشار إليه كاسيرر ، يعنى أن كلا منهما ينبع من أصل غير عقلانى فى التجربة المباشرة . وهكذا يظل أصلهما الوجودى يتصف بالغموض بالنسبة للتفسير العقلانى . وفى العصر الحالى وعلى نطاق كبير اعتبرت هذه الطريقة فى تصور الوجود دليلا على العدمية* ، بالرغم من أنه كان من الواضح أن هذا النوع من التفكير كان يضم مختلف أنواع «الوجوديين» .

---

* العدمية Nihilism :

شكل من أشكال الواقعية الفلسفية ، ساد فى روسيا خلال ستينيات وسبعينيات القرن التاسع عشر ، وهو يعكس وجهة النظر العلمية والمادية فى الجنس البشرى ومكانته فى الطبيعة . وكان إيفان تورجينى Ivan Turgeney هو أول من أطلق =

إن الإنسان ليس عقلا متجرداً عن الجسد، فهو يوجد من خلال الجسد الذى سوف يموت. وقد يخرج الإنسان من ذلك بنتيجة مؤداها أنه لايوجد فى الحقيقة سبب لذلك- أى أنه لم يوجد فى الحقيقة مطلقًا أو أن العالم لم يوجد على الإطلاق . ولكن حين يفكر هكذا ، فإنه يصبح واعيا بقوة فهمه العقلانى لنفسه . فقد نطق بما يبدو أنه أكثر المقولات بساطة حول ما يعتبره معقولا ، ولكنها بالتأكيد أكثر عقلانية وتطرفًا . فهو لم يعترف بشئ واحد وإنما يعترف بشيئين : وجوده هناك ، وإدراكه لوجوده هناك، والشيئان معا يحددان معنى وجوده، بينما يفشل أحدهم بمفرده فى

---

* هذا اللقب ، وذلك فى روايته «آباء وأبناء» ، فقد وصف به شخصية بازاروف Bazarov الذى كان ينكر كل ما يثبته العلم . ويعتقد الشخص العدمى أن المجتمع المعاصر منفصل عن تناغم الطبيعة واتساقها ، وأنه يقوم على الأكاذيب والنفاق، وهو فى هذا الرأى يتفق مع الماديين والملحدين . ولذلك حاول الشباب الروسى أن يحرروا الإنسانية وأن يغيروا المجتمع بأن يتصرفوا وفقا لطبيعتهم الحقيقية . ولقد تزامن المذهب العدمى مع أشكال عديدة من اشتراكية الفلاحين التى ظهرت خلال تلك العقود ، ولقد فشل معظم النقاد فى رؤية الفروق الموجودة بين هذه الحركات المتعددة ، فاطلقوا عليها جميعا اسم العدمية .

لمزيد من المعلومات انظر :

Glicksberg , C . : The Literature of Nihilism (1975) , Yarmolisky , A : Road to Revolution : A century of Russian Radicalism (1969)

(المترجمة)

ذلك . فالاثنان معا يفسران قوة حديث الإنسان وخصاله المميزة وعقله الذى زعمت الفلسفة اليونانية أنه يؤدى إلى منطق مثالى للوجود ، والذى ربطه القديس جون بقوة إلهية خلاقة أسمى من التفكير الإنسانى.

إن الظروف الاجتماعية والتاريخية التى تكمن خلف طرق التفكير الهللينية واليهودية- المسيحية قد تمت مناقشتها من قبل، وسوف يتم التركيز لاحقا على الظروف دائمة التغيير لمواجهة الإنسان للإرادة غير العاقلة .

وتؤثر هذه الظروف فى طبيعة المواجهة وخطتها ولغتها ، ولكنها لاتؤثر فى الفعل الدرامى ذاته والذى يأتى إذا ما أطاع الإنسان الأمر «إعرف نفسك»* .

---

* اعرف نفسك gnothi seauton :

عبارة، ضمن ثلاث عبارات ، كانت ولاتزال منقوشة فوق جدار المعبد فى مدينة دلفى باليونان ، اتخذها سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق.م) شعارا له. وقد اتجهت الفلسفة ابتداء من سقراط فى المدن الكبرى باليونان وأثينا بصفة خاصة إلى الاهتمام بالإنسان أكثر من اهتمامها بالطبيعة ، ومن ثم أخذت الثقافة والفنون ترتكز كلها على معرفة الإنسان لذاته .

لمزيد من المعرفة انظر :

Guthrie , W . K . C . : Socrates (1971), Levin , R . (ed) : The Question of Socartes (1971), Plato, the last Days of Socrates , trans . by Hugh Tredennick (1954) , Taylor , A . E . Socrates : The Man and His Thought (1933) .

وفى بعض الأحيـان يتم الاستنجـاد بـهذا النقش الشهيـر الموجود فى دلفى لتـأييـد العـقلانيـة المتـفـائلة ، كـمـا لو كـان على الجنس البشرى أن يهزم جميع نقاط الضعف غير العقلانية فيه من خلال المعرفة- ويجب أن يكون ذلك بالفعل اتجاه الصراع المتحضر . وربما كـان الإغريق يهدفـون إلى تجسيد هذا الاتجاه المستنير عندما أعـادوا بناء المعبد فى دلفى، والذى يربطه التـراث بكل من الربة جايا إلهـة الأرض والإله أبوللو إله الشمس .

ومن وجهة نظر سوفوكليس لم يكن ممكنا تحقيق هذه الاستناره سوى بطريقة تراجيدية لايمكن الفكاك منها. وقد وجد ذكـاء سقراط الساخر أن مـا كـانت تعنيـه نبـوءة دلفى عندمـا أعلنت أنه أحكم البشـر هو أنه يستطيع أن يتـأكد من أنه لايعرف، وأنه فى إعلانه عن مثل هذا اليقين فإنه من المقدر عليـه أن يموت . وليس هناك من طريقـة يمكن بها إضفـاء قيمة تدوم إلى الأبد على هذه الكلمـات أكثر من معرفـة «مبرر» موته .
ومرة أخرى، وفى بعض الأحيـان ، يبدو مضمـون الأمر الإلهى لليـهود : «قف ساكنا واعلم أننى الرب» وكأنه يحمل وعداً صريحًا بالخلاص يأتى من الخارج . ولكن فى المحصلة النهائيـة ، كان على الدراما المسيحيـة (واليهودية) أن تثبت أنها ليست أقل تراجيـدية . فـقد تحـول «الوقـوف سـاكنا والعلم» إلى الصلب دون ذنب للتكفـيـر عـن خطايا الطبـيـعـة الإنسـانيـة غير العـاقلة . مـاذا غيـر ذلك حدث لأديـب ؟ وماذا غير ذلك يمكن أن يحدث لأى إنسان؟

إن الأساس غيـر العقـلانى تمامًا للغـة ، لايمنع جـهـود العقـل ببسـاطة .

ولايجب أن يعنى ذلك أن كل شئ جائز أو أن الحقيقة مفهوم غير موجود. إن التشابه بين اللغة والأسطورة تشابه يكشف كيف يصبح العقل فى كل حالة واعيًا بذاته . كما أنه يصبح داعيًا بوجود «الآخر»، أى ذلك الذى يختلف عنه، والذى يدخل بشكل مباشر فى أعماق الحدس المجهول للخيال والسبب المعقول كى يحاول أن يفهم بقدر ما يستطيع . ويؤكد علم النفس الحديث وجود نواة للوجود غير العقلانى وغير الشخصى ، أو بالكاد الذاتى، حتى فى داخل أكثر الأشخاص عقلانية ، وهو لايستطيع ألا يفقد هذا الجزء من ذاته فقط ولكن عقله نفسه يصبح عاجزاً إذا ما باعد بين نفسه وبين هذا الجزء . فبماذا سوف يعمل غير ذلك ؟ وما هو «السبب» الآخر الذى سوف يدفعه للحديث؟ ولكن ، وبنفس القدر ، فإن هذا الجزء اللاعقلانى لايستطيع بمفرده أن يدله على ما يجب أن يقوله . ولكى يتفق معه يجب عليه أن يخلق هذه العلاقة فى استجابة لمواجهاته مع بيئته. ويثير ذلك اهتمامه بحسب قوة رغبته ونوعها ، ومن ثم تصدر منه إشارة تدل على اهتمامه . إن الكلمة هى فى المقام الأول دليل على الاهتمام ، وهى لاتعنى الرغبة ذاتها ولا الشئ المرغوب نفسه ، ولكنها تعنى الشئ الموجود بين الاثنين ، أى بداية العلاقة المتحضرة . وحتى إذا كان الصوت الأول، سواء أكان إشارات لفظية أو غيرها، قد جاء عن طريق الصدفة ، فإن الإنسان سوف يهذبه ، كما هذب أدواته الأخرى. فهى أدواته التى يرتب بها نفسه ويربطها بالعالم ويحيطها به علمًا ، ثم يشيد لنفسه مكانا متحضرا (Civitas) ، مثلما شيد الرومان ما عُرف عندهم باسم المدينة ، بينما يبدو أنه كان

يعنى للشعوب الأخرى الأقل تحضراً مجرد مكان للإقامة أو منزل (وذلك إذا كانت كلمة heivoe القوطية هى نفسها كلمة Civis اللاتينية) .

إن عملية تهذيب الكلمات والبناء التدريجى للغة لايأتى مصادفة وبالمثل فإن عملية تهذيب وبناء أدواته الأخرى كى يمكنه التعامل مع العالم لم تأت بالصدفة . إن جذع الكلمات : instrument (أداة) construct (يشيد) ، instruct (يعلم) هو نفسه الفعل اللاتينى Struo (أربط أو أصل) . وبالرغم من ذلك فهناك تناقض فى طبيعة أدوات الإنسان للتعامل مع العالم : فهى ثنائية الجانب ولايمكن فصلها عن وظيفتها كوسيط : فقد تمت صياغتها طبقا لما يمكن أن تفعله للعالم، كما أنها نفسها تمكنه من ربط الأشياء معا فيما يتعلق بتدريب العقل بالكلمات وأيضا بتركيب الأشياء المادية نفسها . إن التساؤل عما إذا كانت صياغات اللغة مناسبة يشبه التساؤل عما إذا كانت أداة محددة هى الأداة المناسبة . ومن السهل نسبيا أن نحكم إذا ما كانت خاطئة تماما أو حتى أن نحدد مدى كفاءتها ، ولكن «الحقيقة» هى السؤال عما «يمكن» فعله مع العالم ، عما «يمكن» أن تكون عليه الحياة، وليست مسألة سؤال عن ماهية الحقائق فى صورتها الثابتة .

وهنا تجد دراسة الأدب مبرراً لها : فهى دراسة للاستخدام الممكن للكلمات ، ولإمكانيات الحياة: فبالكلمات يكون الخيال حراً فى استغلال إمكانيات أكبر بكثير مما يمكن أن تكون عليه الحال مع مجموعة محددة من الأشياء المادية. ولن يتجاهل الفرق بين هذين المجالين للممكن سوى المجانين (وكذلك السحرة والقديسون) .

ومما لاشك فيه أن الإنسان في العصور المبكرة قد بحث إمكانية العنصر الخيالى فى الحقيقة الواقعية بحرية أكثر ، ولكن فى بعض الأحيان كانت النتائج همجية وقاسية . وقد تم البحث عن أصل العديد من الأساطير من خلال النظرية القائلة بأنها بقايا ممارسات وشعائر وحشية. ورغم ذلك يبقى التساؤل عن وظيفة تلك التجارب الخيالية ، وهو ما زال سؤالاً مثيراً لدارسى الأدب، لأن الشعراء ما زالوا يستغلون إمكانية الكلمات ، بالرغم من أن الحضارة المعاصرة تفخر بنفسها لأنها لم تعد تضع الشعر فى حيز التنفيذ ، أى خلط السحر بالعلم (وبهذه المناسبة يمكن الزعم بأن القرابين المتعلقة بالشعائر ما زالت تقوم فى الحقيقة لأسباب أسطورية ، وأنه لايمكن تجنب هذه الورطة مطلقا ، فمن الواضح أن الإنسان يحتاج الأسطورة لكى يدرك أيًا من القيم فى هذا العالم ، فالأساطير تحثهم على العمل كي يحاولوا تحقيق رؤيتهم فى الواقع). ولكن إذا ما افترضنا أننا نعرف الآن كيف نتعامل بشكل أفضل مع العالم الواقعى ، فلماذا نولى اهتمامًا كبيراً لأمور الخيال أو لأى استخدام غير عملى للغة؟ ويتم طرح هذا السؤال بالنسبة لروايات ديكنز وديستوفسكى بصورة لاتقل عن طرحه بالنسبة لأساطير هوميروس وهسيود . وإذا ما اقتربنا من ظاهرة اللغة من حيث وظيفتها، فقد يمكننا أن نفهم مرة أخرى تبريرها بطريقة قد تجعلها مكملة للعلم، لامتعارضة معه، وتمدنا برابطة بين أساطير عصور الأدب المختلفة .

وبشكل عام ، يمكن القول بأن الأساطير تشرح أصل العالم على أساس كونى ومحلى فى ذات الوقت : فهى تخبرنا كيف تكون الكون،

وكيف اكتسب مجتمع ما خصائصه وقوانينه . وهذا المظهر الأخير في الأسطورة يرتبط بشدة بعبادة السلف، وتتخطى الأسطورة القصص التي تدور بشكل أو بآخر حول شخصيات تاريخية. إن الدافع المثالي للعقول الأكثر تحضراً ، والتي تعتقد لسبب ما، حسنا كان أم سيئا ، أنها قد فهمت طبيعة الأشياء والتاريخ بشكل أفضل ، هو أن تفترض بشكل عام أن الأساطير عبارة عن تقرير مشوش وغامض أو بمعنى آخر غير حقيقي، لأحداث واقعية . وهذا يعني اعتبار أن الأسطورة تشير إلى شئ آخر – هو الحقيقة– من الممكن الحديث عنه بطريقة أكثر وضوحًا وأكثر دقة . وكما توقعنا ، نجد أفلاطون يضع مثل هذا التفسير الرمزي على لسان سقراط (في محاورة كراتيلوس) وإن كان من المحتمل أنه لايأخذه بجدية تامة، لأنه يجعل سقراط يقول في موضع آخر أنه يجد مثل هذا التفسير مصطنعًا ومملاً إلى حد ما (وذلك في محاورة فايدروس) . وفي الحقيقة فإنهم يهزمون أنفسهم بأنفسهم ، وذلك لأنهم مسئولون شخصيًا عن تقليل كم الأفكار الأسطورية وتحويلها إلى هراء، بينما يهدفون إلى استرداد معناها الحقيقي. وهذا الموقف من الأسطورة الوثنية يناسب المفكرين المسيحيين بطبيعة الحال، بالرغم من أنهم ليسوا مسئولين عن ظهوره : لقد اعتبر شيشرون وأررسطو ويوهميروس ، وغيرهم من المفكرين القدماء ، أن الأسطورة هي العلم أو التاريخ أو التشريع الاجتماعي ولكن بصورة خفية ، «وذلك كي تقنع الكثيرين ولكي تُستخدم في تعزيز القانون»[١٧] . هل يمكن أن يفكر الأذكياء في غير ذلك إذا ما واجههم الميراث اللاعقلاني لحضارتهم ؟

وبشكل أساسى ، ظل الموقف من الأسطورة على حاله وحتى عصرنا الحالى، فما زالت الأسطورة تُفسر ، بالنسبة لهربرت سبنسر وماكس موللر فى القرن التاسع عشر، على أنها شكل من أشكال سوء الفهم (رغم أن نظرياتهم تختلف فى تحديد سبب سوء الفهم)[١٨] . والتحليل الذى قدمه فريزر[١٩] عام ١٩٠٠ لايختلف إلا قليلا فى منهجه الأساسى- الذى يفسر الطقوس والحكايات الأسطورية بأنها الطريقة السحرية لفهم «أرواح» النبات والتحكم فيها ، وكذلك ملاحظات روبرت جرافيز التمهيدية التى تعنى «أن جزءًا كبيراً من الأسطورة اليونانية هو تاريخ سياسى دينى»[٢٠] ، أى أنه مرتبط بالصراع بين أشكال المجتمع الأبوى والأموى ، وينشر الخصوبة ، ومن ثم بتوفير الرفاهية «لمملكة الملك أو الملكة» . ويرى جرافيز أن الحكايات التى لايمكن تفسيرها بهذه الطريقة الواقعية ليست أساطير حقيقية على الإطلاق. ومرة أخرى نقول إن هذه طريقة غريبة للدفاع - مثل الدفاع عن الأجزاء التاريخية فقط فى مسرحيات شكسبير . بينما أن ما يظل بغير تفسير بواسطة مثل هذه النظريات هو سبب اهتمامنا الآن بالتاريخ القديم، خاصة عندما يتم تحريفها بطريقة خيالية .

وبالرغم من ذلك ، ينبع اهتمام جرافيز بالأسطورة بشكل واضح من ولعه الشعرى الأصيل كما ينبع بنفس القدر من فضوله الشديد للمعلومة. ولاشك فى أن تفاصيل المعلومات المتراكمة حول ما يكمن «حقا» خلف الأساطير القديمة حقيقية إلى حد بعيد، بيد أن حقيقة فائدتها الدائمة للبشرية ، إذا كانت لها فائدة - وهذا الجذب للخيال

الشعرى فى كل عصر يوضح أن لها فائدة بالفعل- لابد أن تكون فى سياق مختلف . إن الحل الوحيد لهذه المشكلة هو قبول فكرة أن الأسطورة تمثل شكلا للحقيقة «لايمكن معرفته بأى طريق آخر» . إن الظروف التاريخية الأخرى، مثلها فى ذلك مثل التقاليد الاجتماعية الأخرى، يمكن أن تزود الخيال بمادة مختلفة : ولكن هذا المصدر الحقيقى لايفسر معنى المنتج النهائى ، مثلما لاتفسر سيرة حياة الشاعر معنى شعره للناس الآخرين أو مثلما لاتوفر معرفة المصدر الحقيقى للغة فهمًا أكبر للعالم الذى يمكنها أن تخلقه . إن البحث عن الوظيفة العلمية غير الحقيقية للأسطورة أو بمعنى آخر وظيفتها الخرافية يمكن فقط أن يجعلنا نتحول عنها إلى طرق أكثر عقلانية لترتيب أمورنا. فهل لها وظيفة أخرى يمكن أن تجعلنا نعيد النظر فيها مرة أخرى ؟

وبالتأكيد يجب أن تكون الإجابة أن الأسطورة ، مثلها مثل اللغة ، لها أكثر من وظيفة . ويجب ألا نندهش حينما نكتشف أنها ببساطة لاتصل بين الحقائق . وفى التحليل الأخير، فإن الذى يقوم بالتواصل هم البشر وليست الحقائق المجردة ، ويكمن شعورهم «بالحقيقة» فى أصل كل تعبير. ومتطلبات الوجود العملى هى التى تجعل البشر يخضعون المظهر الكمى للأشياء لنماذج معيارية مختلفة تجعلهم يتفقون على ماهية الحالة. وسواء كان تقديرهم صحيحًا أم لا ، فإنهم يحكمون على نجاحهم من خلال تناولهم للمهمة الملقاه على عاتقهم ، وأثناء انكبابهم على أكثر المهام العملية فإنهم يكتشفون هناك أسئلة ذات صيغة كيفية لها طبيعة مختلفة : كيف يمكن قياس النجاح ؟ لماذا تُفرض تلك المهام ؟

إلى أى القوانين السامية تخضع كل القوانين البشرية ؟ ثم من أو ماذا يحددها فى النهاية ؟ إن الأساطير عبارة عن حكايات تدور حول تلك المشاكل المحيرة : وهى تستمد فائدتها من أنها تضفى حيوية على تخيل كيفية السؤال فى مقابل خصائصه الكمية . فهى تخبرنا كيف خُلق العالم ، وما هى القوى التى تحكمه ، ولماذا يجب على البشر أن يتصرفوا بطريقة محددة ، ولماذا يجب أن يموتوا . إن الوهم الذى نزعت إليه الحضارة الغربية مرة بعد أخرى منذ أقدم عصور العلم اليونانى يتجلى فى إيمانها بأن الفهم العلمى الصحيح لمظاهر الوجود الكمية سوف توضح أن مثل هذه التساؤلات الكيفية ليس لها أساس وليست ضرورية - أو أنها «سوء فهم فى استخدام اللغة» على نحو ما نزع الفلاسفة فى انجلترا إلى الادعاء به مؤخرا . وفى أثناء تعليقه على الشكل السائد لهذا الوهم خلال القرن السادس عشر، وضع مونتان (Montaiqune) إصبعه بالتحديد على الفرق بين نوعين من القضايا : «أنت لاتموت لأنك مريض» و «وأنت تموت لأنك بشر»[٢١]. ومما لاشك فيه أن المجتمعات البدائية لم تفرق بالقدر الكافى بين القضايا الكمية والقضايا الكيفية ، وبين الحكايات والتاريخ ، بين الأسطورة والعلم أو بين الدين والسياسة . ومما لاشك فيه أن الافتراض الشائع عند معظم علماء الأساطير (بما فيها الأساطير اليهوّدية والمسيحية) بأن الموت ليس أمراً طبيعيا، ولكنه انتهاك لنظام مثالى ، وهكذا فإنه مرتبط بالعنف بشكل لايمكن الفكاك منه، هذا الافتراض لايخدم السياسة ولا البحث الطبى- وبلاشك ، يبدو أن الشعراء والنقاد والفلاسفة - الذين ينزعون بخيالهم إلى تلك الفترات

من التاريخ ، أو إلى تلك الأنماط من المجتمعات التى سادت فيها المواقف البطولية الأسطورية الدينية تجاه الموت ، معرضون لأن يصيروا مستشارين سيئين فى الأمور العامة. بيد أن القرن العشرين ليس أقل عرضة لخطر الوقوع فى شباك الوهم البدائى بعدم إدراك أن هناك نوعين من الأسئلة كمى وكيفى ، وذلك عندما يرغب فى مستشارين يتسمون بالعقلانية والنزعة العلمية الخالصة. فالوحشية التى كانت موجودة فى العصور القديمة التى سادت فيها الأسطورة توضح أن هناك تشابهًا مذهلاً مع الوحشية التى تهدد المجتمع الحديث. والحقيقة أنه يتم ارتكاب نفس «الخطا» دائما فى تلك المعاناة الفظة التى تسببها البربرية على الفرد، هذا الخطأ هو عدم إدراك ثنائية الطبيعة الإنسانية .

وتكتسب الأسطورة أهميتها من أنها تذكرنا بثنائية وجهى الحياة ، قسم العالم العميق والتراجيدى، والشخصية النوعية للوجود والتى لايمكن للصياغات الكمية أن تحل محلها وإنما يمكنها فقط أن تتجاهلها. وليس من بين وظائفها أن تحكى قصصا رمزية عن المظهر الكيفى للغة نفسها ، وهذا بالتأكيد آخر شئ يمكن للغة قياسه وأكثر الأشياء عرضة ألاثراء خلال سلسلة عملها . ماذا يحدث عندما يحاول الإنسان الحصول على ذلك الامتياز الروحى - الذى تصفه الأساطير بأنه طعام الآلهة أو أى شئ آخر مما تملكه الآلهة ؟ إنه يُطرد من الجنة كما حدث لآدم ، أو يكتب عليه المعاناة والشقاء مثل تانتالويس . ولكى نوضح وظيفة الأسطورة أكثر يمكننا أن نقول (ولنأخذ مثالا آخر) إن التفسير العلمى لعملية الاحتراق لايخبرنا ماذا يعنى أن يستطيع الإنسان استخدام النار،

فهى إحدى المراحل الأساسية فى تطور الطبيعة ، ولكن أسطورة بروميثيوس قد تنجح فى أن تخبرنا شيئا من ذلك المعنى. ومن ناحية أخرى ، فإن أسطورة سيزيفوس ، التى كانت ترمز على مدى آلاف السنين لمصير روح الإنسان الشريرة والمناضلة ، لم تستطع أن تساعد سكان كورنثا فى استخدام نبع بيرينى (Peirene) الاستخدام الأمثل ، وهو النبع الذى يقال إن سيزيفوس (سيزيف) قد أمدهم به .

ويجب أن نلاحظ كذلك أن شكل الحكايات يختلف بشكل كبير فى كلا المثالين . فرواية هسيود لأسطورة بروميثوس (فى أنساب الآلهة) توضح أن الإنسان عانى أكثر مما كسب بسرقته النار من الآلهة . ولكن ايسخولوس (فى الثلاثية التى كرسها لهذا الموضوع) يجعل تلك النار الإلهية مصدراً لكل الحضارة. ويجعل بروميثيوس الملهم الروحى للجنس البشرى . ولقد تم تفسير وجود نبع بيرينى من خلال قصص تضم عوامل مختلفة تماما ، فقد قيل إنه ضُرب بحافر بيجاسوس* ، ومن ثم فقد

---

* بيجاسوس Pegasus :

هو الجواد المجنح الذى خلق من دماء الجورجونه ميدوسيا Medusa بعد أن حز بيرسيوس Perseus رأسها .وقد حلق بمجرد ولادته طائرا إلى السماء لينضم إلى الآلهة الخالدين ، أو حسبما روى أوفيد Ovid أنه استقر فوق جبل هيلكون حيث ضرب الأرض بحافره فانبثق نبع سُمى هيبوكرينى Hippocrene وتعنى باليونانية الجواد والنبع، وغدا اثيرا بين ربات الفنون . وما لبث بوسيودون (ويقال اثينا) أن روضه واستأنسه وعندما هم البطل بيليروفون بالقضاد على وحش الخيمايرا =

ارتبط بالموساى* (وذلك بعد تطور الأسطورة وتغييرها). إن تلك

= Chimaera زودته الآلهة بالجواد بيجاسوس . وما إن فرغ بيليروفون من الوحش حتى طرحه الجواد أرضًا لأنه تحايل على الصعود إلى السماء فوق ظهره ، أو لأنه بشر فان . ويروى اوفيد أن بيرسيوس كان هو الآخر يمتطى الجواد بيجاسوس وهو يقضى على الوحش الذى كان يهدد اندروميدا . وكثيرا ما ترى صوره الجواد بيجاسوس حاملا ربه الفجر اوروا Aurora .

لمزيد من المعلومات انظر

Triggs , E : The Meridian Handbook of Classical Mythology (1974) .

(المترجمة)

* الموساى Mousai أو Musae :

أنجب زيوس Zeus كبير الآلهة من عشيقته منيموسينى Mnemosyne إلهة الذكاء تسع بنات هن الموساى أوربات الفنون التسع :

أورانيا Urania ربة الفلك ، وكليو Clio ربة التاريخ ، ويوتيربى Euterpe ربة الموسيقى ، وتيربسخورى Terpsichore ربة الموسيقى، وميلبومينى Melpomene ربة التراجيديا ، وإيراتو Erato ربة شعر البكائيات والمراثى ، وبوليمنيا Polymnia ربة الشعر الغنائى وكاليوبى Calliope ربة الشعر الحماسى وتاليا Thalia ربة الكوميديا .

ولاتختلف الموساى كثيرا عن الحوريات Nymphs ، واتخذن صورة البشر واتصفن بالحكمة والألمام بكافة القصص وإلهام من يخترنه لروايتها ، وإلهام الشعراء بما ينظمون من شعر. وهكذا أصبحن راعيات لفروع الفنون والآداب ، وسادت عبادتهن فى منطقة بييرا قرب جبل أوليمبوس فى ثيساليا وفى جبل هيلكون فى بويوثيا فسمين أيضا بالهليكو نياديس Heliconiades والبيريديس Perides =

الاختلافات والتغييرات فى شكل الأسطورة حول «شئ» واحد هى نموذج مثالى للطريقة التى يعمل بها الخيال الكيفى . كما أن التعبير عن الكيف فيما يتعلق بالشكل وبالسرد وبالشعيرة الأسطورية وبالشكل الشعرى ليس تعبيراً حرفيًا (رغم أن الشعوب البدائية تخطئ وتعتقد عكس ذلك)، إنما هو تعبير رمزى . وتمارس اللغة عملها بنفس هذه الطريقة الرمزية الخلاقة ، فليس فيها شكل واحد محدد يمكن أن يقال به «أى شئ» . وتتوسط اللغة بين كلية جميع الأشياء والفهم الخاص للإنسان الفرد. ومن هذه المواجهة تنبع اللغة والأسطورة وجميع أعمال البشر المنطوقة ، من المواجهة بين العالم الأبدى والإنسان الفانى. ومن ثم ، يمكن رؤية الخيال الشعرى الأسطورى باعتبار أنه يعطى شكلا محدداً لمجموعة من الخصائص منذ الوجود الأول أو التيتانى للعناصر وخلال صراعات الإنسان البطولية مع الآلهة وحتى نصل إلى تقرير أكثر واقعية لأفعال البشر ، يتحكم فى التعبير فيه التشبيه والمجاز والمبدأ الأخلاقى، وفى النهاية تتخطى حدود الإبداع الخيالى. وهى تماثل اللغة فى اساسها، ومن ثم فهى تشبه عملية التفكير ، إذ تبدأ من المعانى شديدة الغموض،

= ولقد كان من الطبيعى أن تختار مثل هذه المناطق الجبلية لعبادة آلهة الماء حيث تتدفق أنهارها وسط صخور الجبال توشوشها وتهدرينها فتبلغ مسامع الناس .

لمزيد من التفاصيل أنظر :

Rose , H . I : A Handbook of Greek Mythology , 6 th ed . (1959) Kick , G . I : The Nature of the Greek Mythes (1974) .

(المترجمة)

والتى لاتكاد تتجسد فى هيئة كلمات ، والتى تلح بنفسها على العقل بقوة أكبر من قوة الإحساس العقلانى، ومن خلال أكثر عمليات البصيرة تعقيداً تتحول إلى كلمات حيث قد تتحقق الحرية اللانهائية للخيال - ولكن مع احتمال أنها قد لاتبدو جادة بشأن العالم. ويظهر جزء من هذا التسلسل بالفعل عند أقدم المؤلفين . فيحكى هسيود عن أصل العالم وذلك فى «أنساب الآلهة» ، وهو عمل يرجع إلى أوائل القرن السابع ق.م ، وإذا كان لقصصه الفجة التى تدور عن الأجيال المتعاقبة من الآلهة أى معنى لنا اليوم، فذلك بالتأكيد لأن هذه هى الطريقة الأسطورية لتصوير الغموض الذى يبدو أننا ما زلنا نعانى منه : إن شعورنا أن العالم «واحد» فى الحقيقة ، بالرغم من أنه مكون من أجزاء ، وأهم من ذلك أنه مكون من أفراد جاءوا إلى الوجود لا لشئ إلا لكى يفنوا مرة أخرى. ونستطيع بالطبع أن نبحث عن تفسير إضافى لهذه الأساطير اليونانية الكونية ، تفسير له طبيعة اجتماعية أو نفسية : فعلى سبيل المثال نجد أن كرونوس (الذى فاز فى صراع الجيل الأول) كان أصغر الأبناء ، بينما كان زيوس (الذى فاز فى صراع الجيل الثانى) أكبرهم ، هذه الحقيقة قد تعكس تغييراً اجتماعيًا فى عادة توريث الابن البكر، أو أن الإيرينات* قد ظهرن من الرماد المتساقط نتيجة خصى أورانوس

---

* الايرينات ، ربات الانتقام (Erinnyes) :

ربات يظهرن فى الأعمال الأدبية اليونانية بدءًا من هوميروس كمنتقمات جبارات عادلات ومنفذات للعنات التى يصبها المظلوم وخاصة على أولئك الذين =

على أنه يرجع إلى قتل الأب الأول. وليس من الضرورى أن تثبت مثل هذه النظريات التى تهتم بالتفصيلات صحتها كى تقنع الخيال أن الموجودات الممثلة فى مثل هذه الأساطير حقيقية أو أن النظام الذى يحكمون بمقتضاه يمثل مجموعة من القيم : بدءاً من الاتساع الممتد للأرض والسماء يتبعه جنس أكثر تميزاً ما زال محتفظا بقواه الهائلة ، منتهيا بعلاقة زيوس الشخصية ، وهو الذى قد يكون معروفًا فى مجالات راسخة حقا مثل البحر والحصاد والمنزل . ولسنا ملزمين بقبول فكره أن هناك أى حقيقة بالمعنى الحرفى فى مثل هذه القصص لكى نرى قيمة العلاقة الواضحة بين الإنسان وحقائق وجوده والتى تنمو بشكل متزايد لقد أدرك خصائصها الأساسية .

= يدنسون الأرحام، ومن ثم كن يصغين إلى لعنات الأمهات والآباء على أولادهم العاقين . ولعل أبرز مثال لنشاطهن هو مطاردتهن لاورستيس بعد أن قتل أمه كليتمنسترا التى غدت أساسا لواحدة من أعظم مسرحيات ايسخولوس وهى «الصافحات» . وهن إلهات لاتعرف الشفقة سبيلا إلى قلوبهن ولايعترفهن بالظروف المخففة ولايكترثن بغير الفعل والفعل وحده . وتمثلت الايرنيات فى الفن والأدب كائنات جبارة صارمة تحمل المشاعل والسياط وتلف الأفاعى حول أجسادها كالضفائر أو فوق رؤوسها أو فى يديها : وقد أمكن تصور أشكالهن من خلال الأوصاف التى أوردها ايسخولوس فى مسرحية «الصافحات» وعُنى الفنانون بتسجيلها ، غير أن نفور العقلية اليونانية من القبح حال دون تصورهن على نحو كئيب خال من الجمال .

(المترجمة)

أما قصيدة هسيود الأكثر شهرة «الأعمال والأيام»، فتبلغ الطرف الآخر للخيال ، وهى تتضمن الكثير من النصائح العملية لكيفية الحياة بسلام وبطريقة منتجة ، وهى تضم أول قصة عرفها الأدب اليونانى (الصقر والكروان) . ولكن ما يضفى نوعا من الوحدة على وصفه لطريقة عمل الإنسان والأيام والمواسم التى تناسب عمله بصورة أحسن هو خلفية الأسطورة ، الأصل الغامض لوضع الإنسان فى العالم، والذى تحاول لغته - مثل كل قوانين الوجود المتحضرة أن تتصالح معه. وذلك لأن «مايحتاجه الإنسان، تحجبه الآلهة عنه، وإلا فإن عمل يوم واحد سوف يكفى عاما كاملا . وسوف يعيش دون أن يفعل شيئا آخر» ويمضى هسيود فى تفسير هذا الوضع بأن يحكى أسطورة بروميثيوس مرة أخرى . وتدرس الحضارة الحديثة الآن التفسيرات المفيدة بطريقة تكنولوجية ، ويجب عليها أن تفعل ذلك، ولكن طبيعة المأزق الإنسانى تظل كما هى، سواء فى تلك الأجزاء من الكون التى يعتصرها الفقر ، أو تلك التى يدمرها الفراغ ، وسوف يظل الأمر على ما هو عليه ، لأن ضرورة العمل والزمن قد وجدت قبل محاولات الإنسان لتنظيمها . وقد نضع نوع الأسطورة التى طورها هوميروس بين كتابات هسيود الكونية والتعليمية ، وهى تنسج حادثة حقيقية دون شك ، قصة حرب قومية ، بالإضافة إلى قصص وجود الآلهة بين البشر. ومن غير الممكن عمل ادعاء أكبر من ذلك عن حقيقة اللغة، فالكتابات الدينية فقط هى التى تعمل مثل هذه الادعاءات ، ولقد أدرك الإغريق على مدى قرون عديدة هذه الخاصية الفريدة فى أشعار هوميروس .

ومرة أخرى ، وطبقا للتعريفات المتأخرة لمعنى الحقيقة ، سواء التعريفات الأفلاطونية أو المسيحية أو العلمية (أو كلها تتساوى فى كونها غير مناسبة)، فإننا لم نعد نؤمن بأساطير هوميروس ، ولم نعد نؤمن أن التاريخ ، ناهيك عن الآلهة ، قد يكون على هذا النحو . ولكن هل تغيرت السمات الأساسية لصراع الإنسان؟ وأهم من ذلك ، ما هى السمات الأساسية التى توضحها لنا قصيدة هوميروس . إنها تكشف عن انتصار العنف الذى يحمل أسباب هزيمته داخله ، وعما تنطوى عليه المثابرة من دهاء خفى بذاته . وتحكى « الألياذة » و «الاديسا » قصة توضح المعنى الرمزى للأسماء ، والطريقة التى أصبح بها كل من أخيليوس وادوسيوس أبطالاً - الأول لأنه لايسمح بأية إهانة تلحق باسمه ، وبالأ يقف عائق أمام إرادته ، والآخر لأنه لم يفقد هدفه ، مهما طالت فترة معاناته ومهما طالت المدة التى يجب أن يختبئ خلالها . ويتولد معنى الاسم وتتجسد قيمة الحياة من خلال صراع الإنسان مع القدر .

إن ذكر أسماء الأبطال بشكل واسع النطاق فى الملحمة القديمة قد يحير القارئ المعاصر أو قد يضجره . ومما لاشك فيه أن الأسماء قد فقدت كثيرا من أهميتها المرتبطة بالشعيرة ، مع غيرها من المعانى الخاصة التى كان من المحتمل أن أسماء الأبطال الإغريق والرومان كانت تتمتع بها . فقد ارتبطت بعض الأسماء بالأماكن، وبعضها بالأفعال ، وبعضها بالعائلات أو الشعوب وبعضها الآخر بالأشياء . ولقد شيدوا معا التاريخ الأسطورى للحضارة القديمة ، وكانت قيمتهم رمزية فقد

ارتكزوا على المخزون الأوسع للكلمات العادية وعلى اللغة المشتركة التى تميز بها الأمة نفسها وبها تحفظ ذاتها . فالاسم يكتسب قيمته الروحية من ميزة «البقاء» التى يفتقر إليها حامل التسمية بشكل واضح، سواء كان شخصا أو شيئا أو حادثة . ومن ثم ، فهل يجب علينا أن نختم بالقول بأن هناك مجالاً لخواص «البقاء» منفصل عن الأشياء ؟ إن هذه ليست بخاتمة تطمع فيها اللغة أو الأدب (رغم أن الفلاسفة الروحية يميلون إلى ذلك) .

ويكمن التناقض فى اللغة فى أنها تبدو وكأنها تمنح الأشياء الخلود. ولكن يمكنها أن تكشف هذه الحقيقة الروحية فقط من خلال تمسكها بالكلمات ، أى بعالم الأشياء . ولقد تمت مقارنة الآلهة الوثنيين بالإله اليهودى المسيحى، من حيث التحديد الدائم لأماكن سكناهم المحلية ولأسمائهم(٢٢)، فقد كانوا آلهة هذا المكان أو ذاك أو ذلك الفعل أو تلك

---

* يهوه Yahweh :

فى العهد القديم كان الإله يسمى يوهو Yhwh ، وإن كان معظم الدارسين ينطبقونها ياهو Yahweh ، ولكن النطق الصحيح فقد لأنه كان نادرا ما ينطق بوضوح . ورغم أن معنى يوهو Yhwh موضع جدل، فإنه يُترجم عادة على أنه يعنى: «ذلك الذى»، ومن المحتمل أنه يصف يوهو بأنه الخالق. والإله فى الديانة اليهودية والمسيحية يتمثل فى صورة شخصية على نحو ما ، وهو خير وأخلاقى ويهتم بالبشر وبحياتهم، ولذلك فإنه مرتبط بالعالم بشكل كبير ويلعب دورا كبيرا فى الحياة وفى مسيرة التاريخ . =

الأسرة ، وتم تصورهم بطريقة تتناسب مع الخيال الشعرى ، بينما ظل يهوه* (Yahweh) غير مرئ .

ورغم ذلك ، يجب أن نضيف أن حقيقة يهوه قد أصبحت معروفة فى تاريخ شعبه المختار على نطاق واسع ، وأنه قد تجسد أخيراً فى معاناة رجل واحد. ولايمكن تصور شكل أكثر اكتمالا لتوحد الكلمة مع الحقيقة من ذلك الاعتقاد المسيحى الذى يعد كل البشر بالخلود باسم إله - بشرى «المسيح» . ويقال أن نطق ذلك الاسم يخلق حقيقة جديدة تنقذ البشر من الموت بشكل حقيقى وليس على طريقة الشعر. وبفضل ذلك الاعتقاد الذى استبدل قصص القدماء الخيالية بكلمة غيرت بالفعل هيئة العالم، وجسدت بحق السر الذى بمقتضاه يتحول الطعام إلى روح ترمز بالفعل لوجود الإله، تمكنت المسيحية من التخلص من أساطير وأدب الإغريق والرومان .

= لمزيد من المعلومات انظر :

Raez , I : The Unknown God (1970) , Ward , K : The Concept of God (1975) , Murray , J ,. C : The Problem of God , Yesterday and Today (1964)

(المترجمة)

References :

1- Leo spitzer , Linguistics and Literary History (New York I g 62) , p. 8 .

2- See Lévi - Strauss's articles on structural analysis in Word (New York 1945) and more recently in Signes (Paris 1960)

3- See especially Ferdinand de Saussure , Cours de linguistique generale (Paris 1960) .

4- wilhelm nov humboldt , Uber die Kawisprache auf der Insel Java (1836-40) .

karl marx , die deutsche Ideologie (Beriln 1932) , p. 405 .

6- FRIEDRICH HOLDERLIN , Sämtliche Werke , ed by N . V . Hellingrath (Munich and Leipzig 1913-23) , Vol. IV , p. 246 .)

7- A Treatise of Human Nature (1739) .

8- JAMES MONBODDO, The Origin and Progress of Language (1773-92) .

9- JACOB GRIMM , Geschichte der deutschen Sprache (1818) .

10- See especially M. HEIDEGGER , Introduction to Metaphysics, trans. by R . Mannheim (Paperback) : New York 1961) ; Nietzsche (Pfullingen 1961) .

11- Nietzche , Musarion - Ausgabe , Vol. XVI (Munich 1922), p. 235 .

12- HEIDEGGER, Introduction to Metaphysics , p. 51 .

Other short quotations are also taken from this translation .

13- See for instance , B . FARRINGTON, Greek Science (Harmondsworth 1944) .

14- See especially his Philosophy of Symbolic Forms , trans . by Susanne K. Langer (New York 1953-7) . Susanne K . Langer is his best - known disciple writing in English (see her PHILOSOPHY in a new key (New-York 1955) ; but many critics , such as Northrop Frye , might be thought of as working along similar lines .

15- ERNST CASSIRER, Language and Myth , trans . by Sysanne K . Langer (New York 1953) ,p . 84 .

16- ibid ., p. 38 .

17- Aristotle , Metaphysics XI , 8 , 19 .

18- See HERBERT SPENCER , Principles of Sociology (1817-96); MAX MüLLER, Lectures on Language (1864).

19- J. G. FRAZER, The Golden Bough (London 1911-36).

20- ROBERT GRAVES , The Greek Myths , 2 vols . (Paperback : London 1955) ; but see also his The White Goddess (London 1952) and The Golden Fleece (London 1944) .

21 - Essais , BOOK III , Ch . 13 .

22- See the discussion of this point in Erich AUERBBACH , Mimesis, trans . by W. Trask (Princeton 1953 .)

رقم الإيداع ٩٧/١١٣٨٩

الترقيم الدولى I.S.B.N 977 - 54 87 - 76 - 5

دار روتابرينت للطباعة ت: ٣٥٥٢٣٦٢ – ٣٥٥٠٦٩٤





للدراسات و البحوث الانسانية و الاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES